عالم القـرن العشرين

فجْر جديد.. وعصر فريد

obeikandl.com

من الأحداث والوقائع الكبرى (١٩٠٠ ـ ١٩١٤)

السنة	الوقائع
١٩٠٠	٢ يناير :صدور العدد الأول من جريدة (اللواء) صحيفة الزعيم المصرى الوطنى مصطفى كامل . ـ بريطانيا وألمانيا يشرعان فى سباق التسلح . ـ عثمان جلال يمصر باللغة العامية المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية ، ويقدمها للجمهور
١٩٠١	تكوين الكومونولث الأسترالى ـ موافقة الدولة العثمانية على المركز المتميز لبريطانيا فى الكويت ، مقابل التعهد بعدم احتلالها .
١٩٠٢	ألمانيا تحصل من الدولة العثمانية على امتياز مد خط السكة الحديد الذى يربط بين البسفور والخليج العربى .
١٩٠٣	تأجير منطقة بناما للولايات المتحدة الأمريكية .
١٩٠٤	بداية الحرب اليابانية ـ الروسية (انتهت ١٩٠٥) . اليابان تطالب بكوريا ومنشوريا . ـ المعاهدة الإنجليزية ـ الفرنسية التى أطلقت يد بريطانيا فى مصر ، ويد فرنسا فى المغرب .
١٩٠٥	ـ وفاة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية . ـ محكمة العدل الدولية تحكم بأن عُمان دولة مستقلة . ـ الثورة الروسية ضد القيصر (الثورة الأولى) .
١٩٠٦	١٣ يونيو : حادثة دنشواى (قرب منوف بمصر) ـ التفاصيل فى نهاية هذا الثَّبْت التاريخى . ـ أول أكتوبر : انتهاء الخلاف بين الدولة العثمانية وإنجلترا بالاتفاق على موقع طابا ، واعتبارها جزءاً من الأراضى المصرية ضمن الحدود الشرقية طبقا لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، واعتراف فرنسا وروسيا بذلك . ـ وفاة الكاتب المسرحى النرويجى هنريك إبسن . ـ مؤتمر دولى لبحث المسألة المراكشية (المغرب) ينتهى إلى الاعتراف بسيادة سلطان مراكش ، والاتفاق على إنشاء بوليس دولى للمرافىء بها ،ومصرف (بنك) للدولة ، رأس ماله أوروبى . ـ زلزال ضخم فى سان فرانسيسكو . تأسيس الحزب الوطنى فى مصر بزعامة مصطفى كامل .
١٩٠٧	ـ اضطراب مالى اقتصادى فى الولايات المتحدة ـ فرنسا تحتل الدار البيضاء.

مواطنون كويتيون فى مطلع القرن يشربون القهوة فى سوق المدينة .

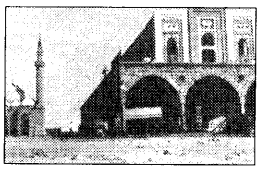

نهاية خط سكة حديد تركيا ـ الحجاز بالمدينة المنورة.

١٩٠٨	ـ ١٠ فبراير : وفاة الزعيم الوطنى المصرى مصطفى كامل . ـ ثورة الشباب التركى . ـ اكتشاف البترول فى منطقة الخليج العربى . ـ بادن باول ينشىء حركة الكشافة . ـ إنتاج أول سيارة فورد طراز T. ـ سقوط نيازك ضخمة على سيبيريا .
١٩٠٩	روبرت بيرى ـ المستكشف الأمريكى ـ يكتشف القطب الشمالى . ـ الروس يحتلون تبريز (بفارس) .
١٩١٠	إنشاء اتحاد جنوب أفريقيا . ـ بداية الثورة المكسيكية (حتى ١٩١٧) . ـ ضم كوريا إلى اليابان . ـ أزمة دستورية فى بريطانيا . ـ وفاة الروائى الروسى : تولوستوىْ .
١٩١١	الثورة الصينية : سقوط أسرة المانشو الحاكمة ،وإعلان الجمهورية . ـ أول استخدام للطائرة كسلاح هجوم مقاتل فى الحرب التركية ـ الإيطالية . ـ هزيمة تركيا واحتلال إيطاليا لطرابلس وليبيا . ـ المستكشف النرويجى أمندسِن أول من يصل إلى القطب الجنوبى .
١٩١٢	مد خط لنقل البترول الإيرانى إلى ميناء عبدان (بمعرفة الإنجليز) . ـ حرب البلقان (حتى ١٩١٣) وهزيمة تركيا أمام تحالف : بلغاريا ـ الصرب ـ اليونان ـ مونتنجرو وتوزيع معظم أراضى الدولة العثمانية على المتحالفين البلقان . ـ غرق أحدث وأضخم سفينة ركاب فاخرة : تيتانيك فى أول رحلة لها (عبر المحيط الأطلنطى) ، وغرق ١٥١٣ من ركابها وطاقمها . ـ معاهدة الحماية الفرنسية على مراكش مع سلطانها عبدالحفيظ . ـ القائد الفارسى شجاع الدولة يحرر مدينة تبريز من الروس . ـ البحرية البريطانية تقرر استخدام البترول ـ بدل الفحم ـ كوقود للأسطول .
١٩١٣	اضطرابات عمالية كبيرة فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . ـ بلغاريا تهاجم الصرب واليونان ، وتنهزم بعد تدخل رومانيا .
١٩١٤	ظهور أول أفلام شارلى شابلن . ـ افتتاح قناة بناما للملاحة الدولية . ـ نشوب الحرب العظمى (العالمية الأولى) ، واستمرارها حتى ١٩١٨ .

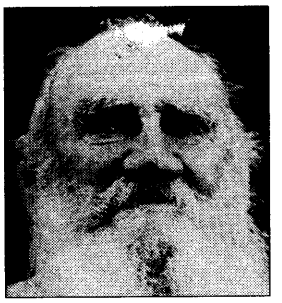

تولوستوىْ

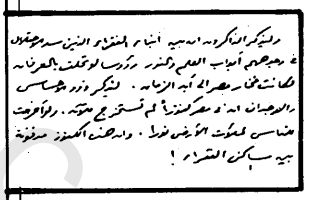

من رسالة بخط الزعيم مصطفى كامل .

مصر قبيل الحرب :	٣/٥ أرض مصر مملوك أو مرهون للأجانب ـ مجموع رأس مال الشركات المساهمة الأجنبية فى مصر ١١١٢٣٢٢٥٧ جنيها (عدا الشركات الأجنبية الخاصة). وبلغت ديون مصر لأوروبا ٦ مليار فرنك = ٢٤٠ مليون ج مصرى .

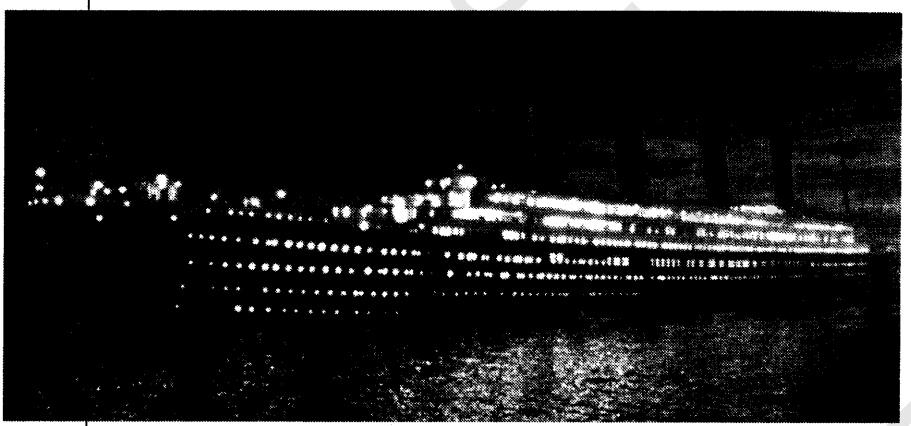

الباخـــرة تيتانيـك

obeikandi.com

مأساة دنشواى

نوجز أهم وقائعها على النحو التالى بالترتيب :

● كان من عادة ضباط وموظفى جيش الاحتلال البريطانى فى مصر التجول فى المدن والقرى للنزهة ، والسلب ، والصيد بالبنادق .

● يوم الاثنين ١١ يونيو ١٩٠٦ غادرت كتيبة بريطانية (حوالى ١٥٠ جندياً) القاهرة إلى الإسكندرية بالطريق البرى .

● بعد مسيرة يومين ، وصلت إلى منوف . أبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز برغبتهم فى الصيد ببلدة دنشواى (تابعة لنقطة بوليس الشهداء ، مركز شبين الكوم) .

● طلب المأمور من الثرى عبدالمجيد بك سلطان أن يعد لهم مركبات تنقلهم إلى دنشواى ؛ ففعل .

● عسكر الجند عند كمشوش ، وتوجه الضباط الخمسة بالمركبات إلى دنشواى ، يرافقهم أومباشى من البوليس المصرى ، وترجمان .. فذهب الأومباشى لإبلاغ العمدة لاتخاذ الاحتياطات التى تكفل عدم احتكاك الأهالى بالإنجليز .

● لم ينتظر الضباط الإنجليز حضور العمدة، ولا عودة الأومباشى ، فوقف بعضهم يصطاد الحمام من خلال الأشجار القائمة على الطريق الزراعى ، وذهب البعض الآخر يتجول عبر أجران القمح ، ويصيد الطيور (خاصة الحمام، وهى مملوكة بالطبع للأهالى) .

● صوَّب ضابط إنجليزى محتل بندقيته إلى حمامتين عند جُرن مؤذن القرية محمد عبدالنبى (وكان يشتغل به أخوه شحاته) ؛ فصاح بالضابط المحتل شيخ عجوز (فى الخامسة والسبعين) يدعى حسن على محفوظ ، محذِّراً من خطر اشتعال حريق يأتى على الجرن (هذا الشيخ المسن هو أول من صدر ضده حكم بالإعدام .. ونُفذ !!) . وكذلك صرخ شحاته محذِّراً .

● لم يعبأ الضابط الإنجليزى المحتل . أطلق النار . أخطأ الحمام وأصاب أم محمد، زوجة المؤذن ، وأشعل ببندقيته النار فى الجرن .

● صاح شحاتة مستغيثاً ، ونزع (فقط) البندقية من الضابط الإنجليزى المحتل المعتدى ؛ فأقبل الرجال والنساء والأطفال سراعاً يصرخون ويُوَلولْن : الخواجة قتل الوليَّة وحرق الجرن ! ، الخواجة قتل الوليَّة وحرق الجرن ».. أحاطوا بالضابط الإنجليزى المحتل الأحمق ، وهم يصرخون ويندبون . (فقط مجرد إحاطة وصراخ . وكان من السهل تمزيقه إرباً إرباً) .

● جاء بقية الضباط الإنجليز المحتلين غاضبين شاتمين . وفى الوقت نفسه وصل شيخ الخفراء ورجاله لتفريق الجموع الثائرة ، وإنقاذ ضباط الاحتلال المعتدين ..!، فظن هؤلاء أن شيخ الخفراء ورجاله يريدون بهم شرًّا ؛ فأطلقوا عليهم العيارات النارية؛ فسقط شيخ الخفراء جريحاً ، فصاح الجمهور الثائر (بحق) :« شيخ الغَفر قتلوه ! شيخ الغَفر قتلوه !» .

●فانهال الطوب والضرب بالعصىّ على الضباط الآثمين ؛ فأصيب قوموندان الكتيبة بكسر فى ذراعه ، وجُرح ملازمان جروحاً خفيفة . جاء ملاحظ بوليس نقطة الشهداء ، وأوصلهم ـ بحماية الخفراء ـ إلى معسكرهم .

● أثناء العراك مع الأهالى ، هرب اثنان من ضباط الاحتلال من مكان الواقعة،أحدهما مصاب بجرح فى رأسه ، وقطعا مسافة نحو ثمانية كيلو مترات جرياً فى الحر الشديد القائظ ، فسقط المصاب متأثرا بضربة الشمس ، ومات (ثبت فيما بعد أن سبب الوفاة ضربة الشمس) عند قرية سرسنا.

● عندما وصل الخبر إلى أفراد الكتيبة فى كمشوش ؛ هَبُّوا للقتال .

● شاهدوا فى طريقهم زميلهم الهارب المصاب فى رأسه مُلقًى على الأرض يحتضر ، وبجواره فلاح مصرى طيب إنسان ، يحاول أن يسقيه بعض الماء ، فانقضوا عليه ضربا بالبنادق والسونكى ، حتى مزقوا جسمه ، وهشموا رأسه ؛ ومات سيد أحمد سعيد ، الفلاح الطيب المسكين ، شهيداً . ومن عجب أن قَتَلته لم يحاكموا ، ولم يُسأل عن قتله أحد ! .

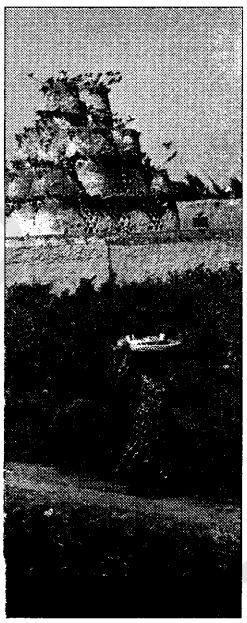

* كان من عادة جنود الاحتلال البرطانى مباغتة القرى المصرية فى أى وقت وانتهاك ه يحلو لهم عنوة ، وكذلك صيد حمام الفلاحين بالقرى بلامقابل!

الأحكام قبل التحقيق ..

ثارت ثائرة المحتلين البريطانيين المحتالين . وأقسموا ليُدَمِّرنَّها مصبحين ، بل إن مستشار وزارة الداخلية المصرية ـ ويدعى متشل (إنجليزى) ـ توجه

إلى مكان الحادث (فى دنشواى) فى نفس يوم وقوعه ، وأجرى تحقيقاً سريعاً ، وأمر السلطات (المصرية) بالقبض على أهالى دنشواى جزافاً . وفى اليوم التالى مباشرة، نشرت جريدة المقطم (لسان الاحتلال) ،وقبل أن يبدأ التحقيق الرسمى ، أن الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى موقع الحادثة. ودهش الناس ، حَنقوا فى التباس : أإعدام قبل أحكام ؟!، وتطبيق قبل تحقيق؟ ما هذا بالعدل يليق !. يا كاشف الغُمة .. رُحماك بالأُمة .وبات الشعب جَمْعاً مَغيظ، من ظلم شرذمة الإنجليز ...

مهزلة المحاكمة

٢٠ يونيو ١٩٠٦ ..

قبل انقضاء أسبوع على وقوع الحادثة ، أصدر بطرس غالى باشا وزير الحقّانِيَّة (العدل !!) بالنيابة قراراً بتشكيل محكمة مخصوصة لمحاكمة « المتهمين»، برئاسة بطرس غالى ذاته ، وعضوية كل من : الإنجليزى هبتر ، نائب المستشار القضائى ، والإنجليزى بوند ، وكيل محكمة الاستئناف ، والقائمقام لادلو ، الذى يتولى أعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال ؛ وأحمد فتحى زغلول بك (نال رتبة الباشوية بعد المحاكمة) رئيس محكمة مصر الابتدائية .

● انعقدت المحكمة بسراى المديرية فى شبين الكوم فى العاشرة صباح ٢٤ يونيو .وشهد دكتور نولن الطبيب الشرعى الإنجليزى أن وفاة الضابط الإنجليزى المصاب فى رأسه ترجع مباشرة إلى ضربة الشمس ، وأن الإصابة التى فى رأسه لا تُفضى إلى الموت .

● قُدم للمحاكمة اثنان وخمسون « متهماً » ، مقيدين فى الأصفاد ، وسبعة من الغائبين .

● صباح يوم ٢٧ يونيو صدر الحكم ، الذى دوَّنه بيده أحمد فتحى زغلول (شقيق سعد باشا) :

– ٤ إعدام شنقاً بقرية دنشواى ، وأمام الأهالى .

– ٢ أشغال شاقة مؤبدة (أحدهما مؤذن القرية الذى قُتلت زوجته ، والثانى شقيق الشيخ العجوز الذى حكم عليه بالإعدام) .

– ١ الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً.

– ٦ السجن سبع سنوات .

– ٣ الحبس مع التشغيل لمدة سنة ، مع الجلْد ٥٠ جَلْدة .

– ٥ الجلد خمسون جلدة .

* رُب ضارة نافعة.. إذ كان من نتائج واقعة دنشواى التى أراد الإنجليز أن يجعلوها درسا مخيفا للمصريين ليلتزموا الخضوع لهم أن اشتعلت روح الوطنية المكافحة والغضب بين المصريين جميعا كمقدمة لثورة ١٩١٩ ، واضطرت بريطانيا عقب دنشواى إلى عزل رجلها الصارم الخبيث فى مصر (الحاكم الفعلى) اللورد كرومر . فى الصورة : مشنقة دنشواى.

فيكون مجموع الأحكام واحداً وعشرين ، ووفاة سيدة ، وتهشيم رأس فلاح برىء وتمزيق جسده ، وإصابةشيخ الخفراء ، وأفراد كثيرين غيره ، واحتراق جُرن القمح ، وذعر الأهالى ، وإرهابهم ، وإهانتهم ، وتحملهم مصائب تلك الكارثة من بدايتها إلى ما بعد صدور الأحكام الجائرة القاهرة البشعة .. ولا ذنب لهم ولا جريرة .. فمن الجانى ومَن الضحية ؟ .. مَن المجرم وأين القضية؟.. وويل ـ كل الويل ـ لمن أعان ظالماً على ظلمه ! .

● تم تنفيذ الأحكام يوم ٢٨ يونيو . ونُفذت أحكام الشنق علنًا فى الساعة الثانية ظهراً ، على مرأى ومسمع من الأهالى ، والآباء ،والأبناء . وكذلك أحكام الجَلْد ، فيما وصف بأنه « مجزرة بشرية تغمرها القسوة والفظاعة » .

● فى ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦ قابل الزعيم مصطفى كامل ـ مصادفة ـ أحمد فتحى زغلول، فرفض أن يصافحه ، وقال : « إن مشاركتك فى محكمة دنشواى ، وفى إصدار أحكامها ، تَحُول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة».

فجر جديد فى مستهل قرن تتعاقب فيه الوقائع والحوادث ، على نحو غير مألوف فيما سبق من قرون وأحقاب ، وإطلالة عصر فريد فى إنجازاته ، ومظاهره ، وتقلبات أفراحه وأحزانه .

إن هذه الوقائع والإنجازات الجديدة الفريدة ، هى ذاتها التى تيسر لنا تتبع حصاد هذا القرن الولود كثير الإنجاب ، بتقسيمه إلى مراحل ، تبدأ من مطلعه إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ثم مرحلة ما بين الحربين العالميتين (الأولى والثانية) ، ثم مرحلة ما بعد الحرب الثانية إلى الحرب الباردة ، ثم مرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، إلى نهاية القرن ، وضعا فى الاعتبار، أنها مراحل متصلة متشابكة ، ليس الفصل الكامل بينها مقبولاً ولا معقولاً ، فى الواقع أو المنطق ، بل إن وقائع وأحداث أواخر القرن التاسع عشر امتد مسارها وتأثيرها على بعض ما جرى فى القرن العشرين ، وربما يمضى مداه إلى مابعد القرن العشرين .

فـى كلمة عامة جامعة شاملة ، نستطيع أن نقول : « إن القرن العشرين كان ـ بحق ـ (قرن أوروبا والغرب) ، بمعنى : أن معظم الأحداث الكبرى وترددتها وأصداءها واتساع مداها ، وضع العالم كله ـ بطريق مباشر ، أو غير مباشر ـ داخل « إطار » من صُنع أوروبا (والغرب)، ووفق تصوراتها ،

وطموحاتها ، وهواهـا ، ومطامعها ، التى بلغت أحياناً درجة المغالاة والإجحاف ، أو الإفراط والصلف وقهر الشعوب ، ثم انكسر « الإطار » أو انبعج فى أواخر القرن .

والنظرة « البانورامية » الشاملة الجامعة لأحداث القرن العشرين ومتغيراته ، تثير فى النفس التساؤل والتعجب منذ البداية (بداية تناولنا لحصاد القرن) عند البحث عن إجابة شافية كافية لسؤال يظل صداه مضطرداً حائراً من أول القرن إلى منتهاه : لماذا يصر « إنسان » ما ، يملك القدرة أو القوة ـ أو بالأحرى الطاقة ـ القاهرة المروعة ، على أن يفرض إرادته على غيره ، وأن يُخضعه لسيطرته ، أو أن يطبعه بطابعه ـ وهذا هو الأدهى والأخطر ـ ويُلزمه بما يرى أو يهوى ، بما يؤْمن ويعتقد ، والدول فى هذا الإصرار كالأفراد سواء بسواء ؟! .

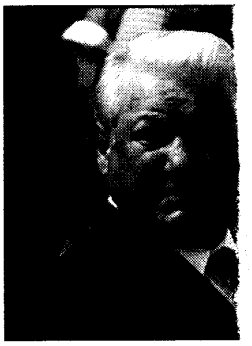

يلتسين

قد يقال : نزعة السيطرة ، أو إرادة التحكم ، أو الرغبة فى الاستغلال والاستنزاف ، أو إشباع شهوة التعالى والتسيد والكبرياء ، أو التحصن وحماية النفس ، أو الذات ، أو المكانة ، والثروة ...كلها تبريرات قد تُقبل أو ترفض، وقد يُضاف إليها ويُنقص منها .لكن السؤال ـ على امتداد القرن العشرين من بدايته إلى نهايته ـ يظل حائراً محيراً . لماذا ؟! .

لأن أوروبا (والغرب) ، تزعم ـ فى قرنها العشرين ـ أنها قادت وتقود العالم ـ المتخلف فى زعمها ـ نحو الاستنارة ، والحرية ، والتحضر ، والديمقراطية ، ومعيشة الهناء والرخاء ، واحترام كرامة وحقوق الإنسان .. ومع ذلك .. كانت هى أوروبا ذاتها (ومعها كل قوى الغرب ، ثم شاركتها لما قويت دول الاشتراكية والشيوعية فى الشرق) كانت هى التى تصارعت ـ بقسوة دموية وعنف ـ أولاً فيما بينها وعلى أرضها، ثم جرَّت العالم ـ أو معظمه ـ ليشارك فى حروبها ومعاركها . ولم تكتف بذلك .. بل هى التى أثارت صراعات وحروباً محلية أو إقليمية ، لم تهدأ نيرانها ، أو تخف حدتها ، حتى أوشك القرن على الانتهاء .

لاستعمار الأوروبى ممثل فى جيكا على شكل ثعبان ضخم ف حول أفريقيا ويفترسها .

ولما انهار النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى وتوابعه فى أواخر القرن، وانتهت الحرب الباردة وتسلمت أمريكا « راية الريادة » ، أو علم القيادة ، أو «عصا الشرطى » ـ كما قيل ـ لم تتخل عن « إصرار » قوى السيطرة والقهر السابقة على فرض الإرادة ، ومحاولتها إلزام الشعوب بما ترى وتهوى ، وتهدد من يخالف أو يعصى .. فى حين أن الحكمة ، والمنطق ، وطبائع

الأشياء، وحقائق الأمور، توضح كلها أن الفكر الأوروبى الغربى ـ الطامع فى السيادة والسيطرة ـ ليس هو الوحيد ، ولا الأفضل ، ولا المثالى فى بعض الجوانب ، كما أنه ليس هو المناسب لكل الأمم والقبائل والشعوب . ولقد أثبتت الأحداث فى النصف الثانى من القرن العشرين صحة ذلك ، وبضحايا مئات الآلاف من القتلى والمذبوحين فى أفريقيا ، وفى آسيا وأمريكا اللاتينية والجنوبية . وشهدت السنوات الأخيرة من القرن مواجهة ـ ما زالت هادئة ـ مع الصين ، التى لا تعرف فى لغتها ، ولا يعرف شعبها مدلولاً محدداً واضحاً لكلمة « ديموقراطية » التى تتمسك بها أمريكا والغرب (رغم عيوب النظام ومساوئه فى التطبيق العملى المشاهد) . والصين ـ كما هو معروف ـ لها تاريخ طويل عريق من الفكر والحضارة .

إن « التحضر » فى المفهوم الأوروبى والغربى ، أنتج أزمات سياسية وصناعية،واقتصادية ،وكان سبباً فى تقسيم المجتمعات ، وتخاصم الشعوب. وبسببه أيضاً أصبحت « الدولة » مركزية أكثر وأكثر ، وتعاظمت بيروقراطيتها ، وتزايدت سلطتها وسيطرتها على حياة أتباعها .

وفى بداية القرن ، أضعفت الضغوط الاجتماعية من قوة روسيا الإمبراطورية القيصرية، حتى إنه فى العِقد الأول من القرن العشرين تجاسرت اليابان على غزوها وهزيمتها .

وبريطانيا « العظمى » كانت فى مأزق : تبحث فى قلق عن سنَد ومعين ، وبالمثل .. تبحث عن اتجاه تسلكه وطريق ، بعد نصف قرن من زهو الإمبراطورية ، وكبرياء العظمة والسيادة .. ففى عام ١٨٣٧ اعتلَت عرش الإمبراطورية فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، تدعى فيكتوريا ، وظلت ملكة تحكم ثلاثة وستين عاماً ، هى أطول فترة حكم فى تاريخ بريطانيا .. فكانت عامرة بالثراء والرخاء والترف ، فى مملكة هى الأغنى والأعْتَى بين دول العالم، وهى أيضاً الأكثر والأوسع مستعمرات : كانت تحكم وتتحكم فى نحو ٢٥٪ من مساحة العالم وسكانه ، وتقود الثورة الصناعية ، وتنعم بالمواد الخام والثروات ، والخيرات تأتيها من كل مكان .. فكنوز المستعمرات لا تتوقف ولا تَنضب، وابتكارات التكنولوجيا ـ بما فيها المحرك البخارى ـ لا تهدأ ولا تكسُل ؛ فأنتجت بريطانيا فى الفترة بين ١٨٥١ ـ ١٩١١ من الصلب وقطارات السكك الحديدية والنسيج أكثر من أى دولة أخرى . وقفز اقتصادها إلى القمة والمقدمة .ولما كانت عملتها مرتبطة بالذهب ، فقد أصبحت عالمية ، وفى الصدارة ، مما جعل إنجلترا مركزاً للبنوك العالمية . ثم

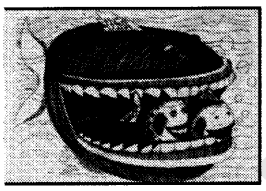

دخول أمريكا فى سوق الاستعمار كالحوت يلتهم الصغار الضعاف

الملكة فيكتوريا (بريطانيا)

ها هى فجأة تشعر بالزلزال ، بشبح الانهيار ، تحت ضغوط الدفاع عن الإمبراطورية ضد قوتين مخيفتين : صحوة شعوب المستعمرات ، وإصرارها على التحرر والاستقلال ، ورغبة الإمبراطوريات المنافسة فى التفوق والاحتلال ، فلما وقعت الحرب العظمى (العالمية الأولى) ، كانت بريطانيا قد فقدت مركزها التكنولوجى المتقدم ، وتفوقها الاقتصادى الممتاز .

وفى أوائل القرن ، بدأ السباق على أشُده فى التسليح ، وبناء الأساطيل ، مع تصاعد حرارة النزعات القومية ، والمشاعر الوطنية . وسرت نغمة صدَحَت وانقدحت، وعَلَت دقات طبولها ، وما هدأت : نغمة البطولة الفردية والوطنية، وكأنها هى وحدها مظهر التحدى وإثبات الوجود ، حتى أصبحت طابع العصر .. فكان شائعاً أن يلعب الأطفال بلُعب على شكل أسلحة ، وجنود من المعدن ، وأن يزهو الكبار بارتداء ملابس شبيهة بملابس القادة والمحاربين . وفى ساحات التدريب وميادين القتال ، لوَّثت الفئران طين الخنادق ؛ فانتشر الطاعون ، كما حصدت بنادق المستعمرين مئات الآلاف من رءوس الوطنيين المناضلين . ومع ذلك ..وفى ظلال تلك المذابح والكوارث ، مع بدايات القرن العشرين ، لاحت أنوار عصر جديد ، وبشائر مستقبل أفضل للحياة الإنسانية.

فى تلك الفترة ، كان الشرق العربى فى مرحلة الاستيقاظ المتأخر ، ويتهيأ

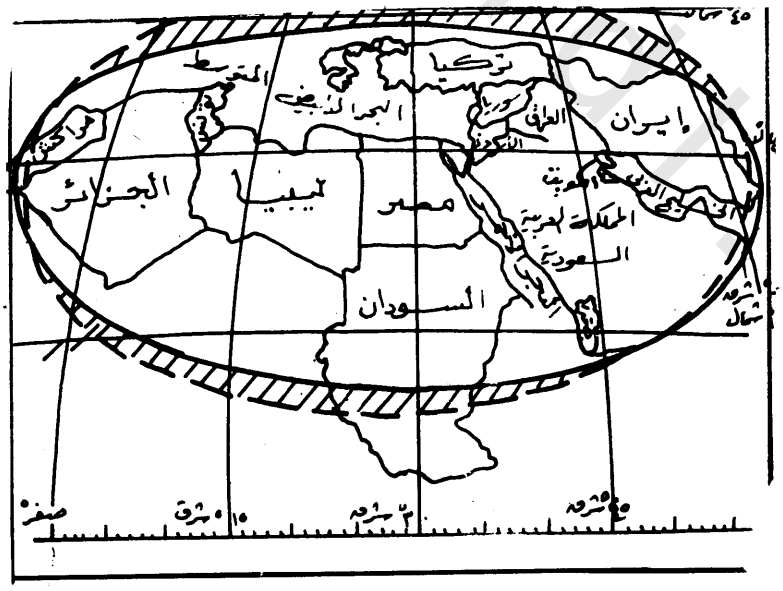

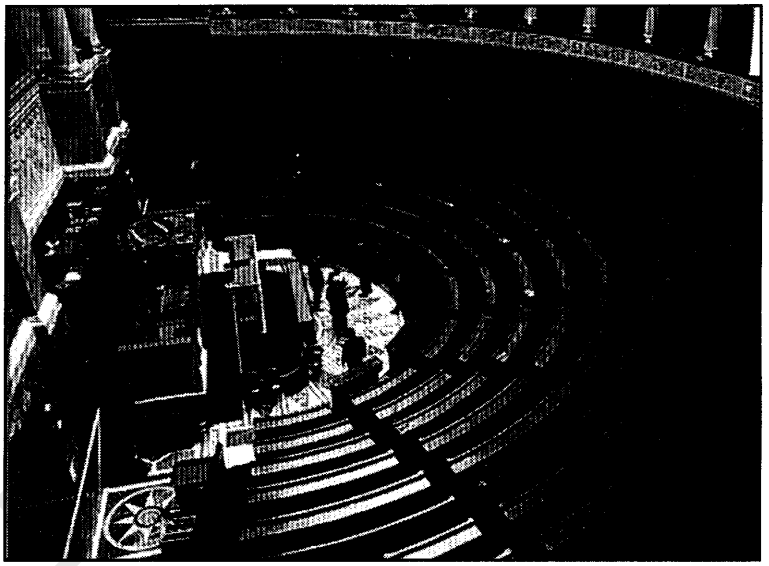

البرلمان الفرنسى من الداخل

لصحوة الكفاح والمجاهدة : مجاهدة النفس ، ومجاهدة التخلف ، ومجاهدة الاستعمار ، وإثبات الشخصية ، وحق الوجود الثابت الراسخ فى موقعه من العالم ، وبتراثه ، وأخلاقياته ،وعقائده ، وحضارته التى حاول البعض طمسها، وادعاء ذبولها واحتضارهاإلى غير رجعة .. وقد وهموا .

وفى الغرب ، قبل عام ١٩١٤ ، كان الاعتقاد السائد أن الحضارة لا ترتكز فقط على الثقافة وموروثات الشعوب ، وإنما أيضاً على القيم والمبادىء الأخلاقية. ولم يكن عند المفكرين والقادة شك كبير فى أن التاريخ هو « قصة التقدم البشرى » ، لكن الغموض يأتى ـ وما زال ـ من تحديد معنى أو تصور مفهوم « التقدم » ومقاصده ومستواه ، بالنسبة للفرد ، والمجتمع ، والأمة .

فى أوروبا ، كانت هناك علاقة ثقافية وطيدة مألوفة بين الطبقة الأريستوقراطية ، والطبقة البورجوازية ، تشكِّل سلوكها ، وزهوها ، واستعلاءها فى أى مكان تقيم فيه ، أو تنتقل إليه على امتداد القارة ، إذ يحكمها ـ أو معظمها ـ ملوك ، بينهم رابطة قرابة أو نَسب ، ويظنون كل الظن أن عروشهم مستقرة مستمرة إلى زمن طويل . والموسرون المتْرفون يعتقدون أنهم ينتمون إلى ثقافة متميزة ، أو نوع سامٍ من التحضر ، فى حياتهم ومعاشهم ، فى تنقلاتهم الباذخة المرحة بين الرِّفييرا ، وباريس ، ودرسدن ،وبحيرة ليمان (فى سويسرا) .. ويلحق بهؤلاء ويتبعهم من بعيد ـ حفاظاً على كبرياء الرجل الأبيض ـ أثرياء وأمراء من العالم « المتخلف » ،

(البرلمان) الكونجرس الأمركى

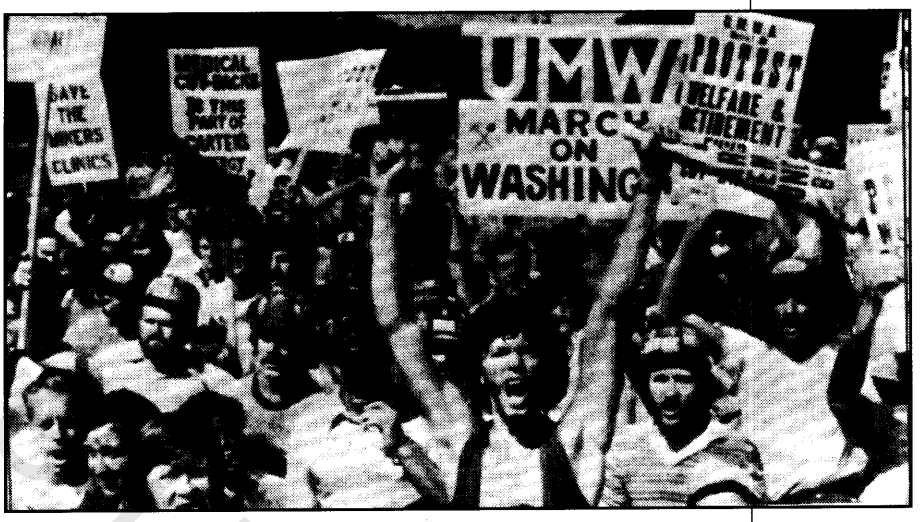

ودول المستعمرات ، الذين يطربهم المنتفِعون ، ويطريهم المتزلفون ، ويستهويهم التجديد والتقليد .

وعلى الجانب الآخر ، كان هناك نوع متزايد من الإصلاح الحقيقى ، استفادت منه جماهير كثيرة من طبقة الفقراءوالبسطاء : إما بدافع الرد العملى ، وسد الذرائع أمام المتحمسين المهيِّجين من دعاة الاشتراكية والانتفاضة أو الثورة، وإما بتحريض من النقابات العمالية والاتحادات المهنية والشعبية التى كان يعضدها بعض المفكرين والقادة والسياسيين .

وكانت ألمانيا ـ فى عهد بيسمارك (توفى ١٨٩٨) ـ أول دولة تبتكر وتطبق نظام التأمينات الاجتماعية والمعاشات للعمال ، الذى انتشر على مهل فى كل العالم الغربى وغيره .ودخلت مع الإصلاحات الاجتماعية أيضا الرعاية الصحية ، وتحددت ساعات العمل ، وتحسنت شروط تشغيل الأطفال ، وأصبح التعليم العام حقًّا عالميًّا مكفولاً للجميع . وهكذا أثمرت الإصلاحات والتغيرات التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وزادت وامتدت بعد بداية القرن العشرين.

وبدأت تتغير نظرة الكثيرين ومفاهيمهم لنُظم وأساليب الحكم ؛ فاكتسبت « الديموقراطية » أراض جديدة ، فى غرب أوروبا وأمريكا .وكلما زادت استنارة الدول والشعوب ، زاد إدراكها بأن الحكومة الجيدة تحرص على إقامة وتوطيد علاقة من الثقة والرضا بين أولئك الذين يشترعون القوانين ،

وبين الكتل الجماهيرية التى تخضع لها . وزاد الاقتناع بأن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك ، هى التعاون ، من خلال عملية الانتخاب الشعبى للبرلمانات ، أو المجالس الوطنية التشريعية ، كأسلوب يمنح الشعوب قسطاً من النفوذ والإرادة فى اختيار حكوماتها (التى تحصل على الأغلبية) ، ولو من الناحية الشكلية أو المظهرية . وقد روعى فى بناء تلك البرلمانات أو المجالس التشريعية ، أن تعكس ـ بضخامتها ، وطرزها ، وفخامتها ـ مسحة من المهابة والجلال ، فضلاً عن الجمال ، توحى بمنزلتها وأهميتها . وهكذا تقلصت رويداً رويداً نزعة الحكم الاستبدادى المطلق . واختلفت صيغ ومقاصد الدساتير ، ولكن بعضها آثر ـ بل صمم ـ أن يتضمن مبادىء السياسات الإصلاحية الجديدة، ومن أبرزها : استقلال القضاء ، الذى يتساوى فى ساحته الغنى والفقير ، القوى والضعيف. ولئن اختلفت النظريات والمُثل أحياناً بعض الشىء عند التطبيق ، إلا أن العدالة ظلت دائماً ذات قدسية وهيبة ، يُرجَى لها ألاّ تحابى ولا تداهِن .

وهو مبدأ عرفتْه وطبقتْه بدقة مجتمعات إسلامية كثيرة فى عصور صلاحها .

ومبدأ المساواة فى الحقوق العامة والواجبات ، وتكافؤ الفرص أمام الأسوياء والقادرين ، وصيانة كرامة الفرد ـ كإنسان ـ وماله ، وعرضه ، ومسكنه ، وأسرته، كلها مبادىء ليست من اختراع أوروبا والغرب ، بل كفلتها الأديان السماوية ـ وهى رسالة موحَّدة موحِّدة فى جملتها ـ ثم خُتمت

بالإسلام ، الذى جعل هذه المبادىء تشريعات إلهية لازمة ملزمة (١).

وفى الدول الصناعية ، خطت القطاعات العمالية خطوات واسعة نحو اكتساب حقوق وتيسيرات فى العمل بعد طول تحمل ومعاناة . ساعدها فى ذلك مؤازرة المستنيرين من المفكرين ، والكتاب ، والصحافيين ، إلى جانب الاتحادات العمالية ، التى اكتسبت قوة الجماعة المتضامنة المتماسكة ، بدلاً من الفردية الضعيفة ، فتحسنت الأجور وظروف العمل والمعيشة .هذا.. على الرغم من أن العمال الذين كانوا ينتمون إلى اتحادات عمالية لم يحققوا آنذاك أغلبية عددية .. فمثلا : فى عام ١٩٠٠ ، كان عدد العمال الذين انضموا إلى اتحادات، لا يتجاوز المليون من بين ٢٧ مليوناً من القوة العمالية . وكانت ـ كما فى بريطانيا أيضاً ـ اتحادات قاصرة على الرجال .. فكان على النساء فيما بعد تكوين اتحادات عماليةنسائية خاصة بهن . وأمر آخر : استبعدت الاتحادات العمالية الأمريكية من عضويتها العمال المهاجرين ، والسود .

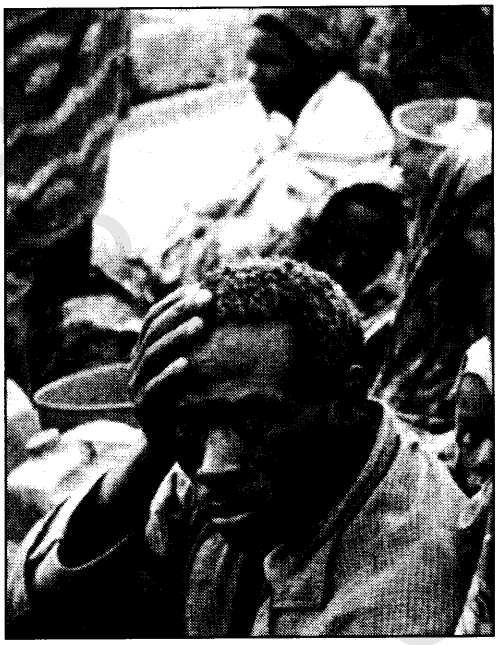

(١) نماذج من آيات قرآنية : ـ « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . » الحجرات ـ ١٣
ـ « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » البقرة ـ ٢٢٨
ـ «ولقد كرمنا بنى آدم » الإسراء ـ ٧٠
ـ « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » التين ـ ٤
ـ « لاتدخلوا بيوتا غيربيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . » النور ـ ٢٧
ـ « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » النساء ـ ٥٨
ـ « ولاتَعْتدوا إن الله لايحب المعتدين » البقرة ـ ١٩٠

وكان لبعض الأقليات العِرْقية (المتجانسة فى الثقافة والمنشأ والعلاقات الأسرية والاجتماعية والاقتصادية) امتيازات خاصة ، حتى فى النظم السياسية ، وبدون استثناء الولايات المتحدة الأمريكية ، التى كانت تفاخر بأن بها أفضل النظم الديموقراطية فى العالم . ولقد شعر السود الأمريكيون بسلسلة من الإحباطات وفقدان الأمل فى الحصول على حقوقهم كاملة كمواطنين . وظلت مطالبهم فى انتزاع تلك الحقوق قضية وطنية حادة معظم سنوات القرن العشرين.

وفى معظم بلاد العالم كانت المرأة محرومة من حقوق كثيرة ، وتُكلَّف بأعمال وأعباء ـ سواء داخل البيت ، أم خارجه ـ تفوق أحياناً قدرتها وتؤثر على رعايتها لأسرتها .

جاء فى كتاب الأمم المتحدة السنوى لعام ١٩٩٤ ما ترجمته [٢]: « إن الأسرة ظاهرة إنسانية عالمية على مدى القرون وعبر العالم .. ويختلف مفهوم دور الأسرة بين المجتمعات والثقافات » .

« تاريخياً ، كانت الأسرة أبوية فى معظم الثقافات ، السيادة فيها للذكور . وقد أعطى « العهد القديم » مثالاً لرءوس عشيرة من الذكور ، أُبيح لهم عدد كبير من النساء، ومثلهن من المحظيات . وفى روما القديمة ، كانت الأسرة أيضا أبوية (أى السيادة فيها لسلطة الأب ، أو من فى منزلته من الذكور)، لكن تعدد الزوجات لم يكن شائعاً .. وكانت لرب الأسرة سلطة تبلغ حد قتل أبنائه » .

« فى العصور الوسطى الأوروبية ، كانت الأسرة واقعة تحت تأثير تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ونظام الإقطاع ، وكانت فى العادة أسرة كبيرة ممتدة، يسودها سلطان الأب . وفى المقابل ، كانت النساء المسْلمات فى الفترة الزمنية نفسها يمتلكن قدراً كبيراً من مباشرة ورعاية ممتلكاتهن الخاصة .

« نتجت عن الثورة الصناعية تغيرات كبيرة فى بنية الأسرة .. فالتصنيع والتمدن (الإقبال على مجتمع المدينة) كانا من العوامل التى أحدثت تغييراً بارزاً فى الحياة وأساليب العمل عند الكثير من الناس ، خاصة الشباب ، فتركوا الريف للعمل فى المصانع .وأدَّى هذا إلى تلاشى عديد من الأسر كبيرة العدد .

« وفى الوقت نفسه ، تراجعت ببطء سيادة الأب فى الأسرة أو سلطانه ، لتفسح مكاناً متزايداً للمساواة بين الجنسين .. فانكسرت حدة الصلابة

---

(٢) UN. Chronicle - March 94, Vol . xxx1,

obeikandl.com

التقليدية فى السلوك ، وفى دور كل من الرجل والمرأة داخل الأسرة . لم يعد واجب المرأة ـ كما كان محصوراً دائماً فى نطاقه التقليدى ـ مقتصراً على رعاية الأبناء وشئون البيت ، دون الاهتمام بالحياة العامة ، التى كانت من اختصاص الرجال وحدهم ، أو بالعمل واكتساب أجر . بدأ عدد كبير من الزوجات فى العمل خارج البيت ، كما أخذ كثير من الأزواج فى المشاركة بأداء أعمال داخل مسكن الأسرة ... » .

* المرأة العاملة ولو بالمنزل

طالبت المرأة بحقها فى اختيار ممثلى الشعب فى المجالس التشريعية . وألحتْ طويلاً فى الحصول على هذا الحق أكثر من نصف قرن ؛ فلم تحصل المرأة الأمريكية على حق الانتخاب إلا فى عام ١٩٢٠ ، وطالبت به المرأة البريطانية بشدة (فى مظاهرات صاخبة وإضرابات) من عام ١٩٠٦ ، ولكنها لم تحصل عليه إلا فى عام ١٩١٨ ، بشرط أن يكون سنها فوق الثلاثين . وكان على اللاتى بين سن الواحدة والعشرين والثلاثين أن ينتظرن طويلاً لسنوات أُخر . أما أول دولة فى العالم منحت المرأة حق التصويت فى الانتخابات العامة ، فهى نيوزيلندا، وذلك عام ١٨٩٣ ، وتبعتها أستراليا عام ١٩٠٨ . ومع ذلك .. ورغم ما حصلت عليه المرأة ـ بدرجات متفاوتة بين الدول والشعوب ـ فإن مساواتها بالرجل ما زالت ـ حتى فى بعض الدول الديموقراطية ، وحتى نهاية القرن العشرين ـ غير كاملة فى الأجور والمِلْكية .

بلغت الإمبريالية الغربية ذروتها فى التوسع والاستعمار (فى أفريقيا وآسيا) مع أواخر القرن التاسع عشر . وادَّعى الغرب ـ وهو يستولى على أراضى وخيرات وكنوز المستعمرات ـ أنه يمنح شعوب تلك البلاد صورة جديدة للحياة والحكم، واستنارة فى المعرفة والثقافة . وهذا ادعاء باطل وزعْم كاذب ، وتبرير فيه تضليل ، لأنه استعمار اتَّسم بالشراسة ، والغطرسة ، والعنف ، والإذلال (لدرجة اختطاف وسرقة ملايين الرجال والنساء والشباب والأطفال فى صيغة رقيق أو عبيد) ؛ فأخَذَ أكثر مما أعطى ، وأضر أكثر مما نفع ، وأفسد بعاداته وأخلاقياته وأمراضه ومجونه ، شعوباً كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان . وتلك فِرية أن تتساوى الحرية والكرامة الإنسانية وصيانة الأعراض والأموال والممتلكات وقدسية الأوطان وشرائع الأديان ، أن تتساوى بأى شكل من أشكال الاستعمار والقهر والاستغلال والاستنزاف والمهانة . ولقد أثبتت وقائع القرن العشرين وحتى نهايته ، أن نظم الحكم التى يزهو الغرب بتعليمها للشعوب ، هى نفسها ـ وبيده المحركة علناً أو فى الخفاء ـ التى فجَّرت مذابح وخصومات حادة عنيفة رهيبة بين أبناء الشعوب والدول

التى خضعت سنين طويلة لحكم المستعمر وأخلاقياته .

فى عام ١٩٠٠ ، فرح الأوروبيون وأيضاً سلالة المهاجرين الأوروبيين إلى الولايات المتحدة وأستراليا وجنوب أفريقيا بما نعموا به من استقرار وعيش رغيد ، وحسبوا أنهم سادة العالم . وقد ساعدهم على تنامى واتساع مدَى قوتهم الهائلة ونفوذهم المتعاظم عبر العالم ، حجم شعوبهم المتكاثفة المتزايدة ، والتغيرات التكنولوجية المستحدثة ، التى أُطلق عليها فى مجموعها تعبير « الثورة الصناعية».

فى عام ١٩٠٠ ، كان يعيش فى أوروبا شخص من كل أربعة أشخاص من سكان العالم ، أى ٤٠٠ مليون من مجموع البشر آنذاك ، وهو ١٦٠٠ مليون نسمة . وفى عام ١٩١٤ ، كان الأوروبيون يحكمون ويسيطرون بإمبراطورياتهم على أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة فى القارة الأمريكية والأفريقية والآسيوية والمحيط الهادىء . معنى ذلك ..أنه قبل عام ١٩١٤ كان شخص واحد من بين ثلاثة أشخاص على سطح الأرض ، يعيش بعيداً عن تحكم وسلطان الأوروبيين ، وسلالتهم المستقرةفى مناطق الهجرة ..

وكانت أفريقيا أكثر القارات التى دَهمها هذا الغزو ؛ وأوقعها فى ارتباك وحيرة، بداية بغزو الثقافة واللغة .. فالمستعمرون الجُدد لايتكلمون بلسان واحد، وإن تقاربت ثقافتهم .. فمنهم من يتكلم بالألمانية ، وآخرون بالفرنسية، وغيرهم بالإنجليزية ، أو الإيطالية ، والبرتغالية ، والإسبانية ... واشتركوا جميعاً فى نزعة الكبرياء والاستعلاء ، أو تفوُّق وتميز الرجل الغربى الأبيض . ودعَّم هذا الإحساس المتغطرس ..ما بأيديهم من قوة السلاح ، ووفرة العتاد ، وتطور التكنولوجيا ؛ مما مكنهم من السيطرة ، وقهر شعوب أعدادها كبيرة ، ومساحة أراضيها شاسعة ، ومقاومتها ضعيفة ، وسلاحها متخلف . وهذه أهم العوامل التى مكَّنتْ أوروبا من استعمار مناطق واسعة من أفريقيا وآسيا ، بعد أن تجنبتْ منذ منتصف القرن التاسع عشر أن يحارب الأوروبيون بعضهم بعضاً ـ إلى حين ـ فاتجهوا إلى التوسع الخارجى الاستعمارى ، لأن تكاليفه ـ المادية والبشرية ـ أقل ، ومخاطره أضعف ، ومكاسبه أوْفى وأعظم.

واستقر فى ذهن وضمير المستعمر الأوروبى القادم الغانم ، أنه ينتمى إلى حضارة « راقية » سامية مزدهرة .. وأن هؤلاء الذين غَالَبَهم وتفوَّق عليهم بالسلاح والدهاء ، أقل منه تحضراً ، وذكاء ، ومدنية . ومع ذلك .. لم يستطع

كان حلم الاستعمار البريطانى السيطرة بالقوة والقهر على افريقيا كلها (وتحت قدميه) من القاهرة إلى رأس الرجاء الصالح ، كما فى هذا الرسم لفنان انجليزى عام ١٨٩٦.

قدم الأفارقة للدخلاء «المستكشفين » البريطانيين وغيرهم خدمات ومساعدات جليلة ثم كان جزاؤهم الاحتلال والاستغلال والقهر واختطافهم فى قوافل العبيد للعمل فى أوروبا وأمريكا .

الأمريكيون فى نانكنج بالصين عام ١٩١١ يرفعون العلم الأمريكى قوة وقهرا .

أن يُنكر أو يُدارى ما كان لهذه الشعوب من تفوق ، وسبْق ، وماضٍ عريق ، وحضارة تركت آثارها المبهرة فى مصر ، والهند ، والصين ، وأيضاً فى أفريقيا، ويحتفظ هو ـ المستعمر ـ ببعض هذه الآثار والتحف الثمينة فى قصوره ، ومعارضه ، ومتاحفه .

حاول المستعمر الأوروبى « المتحضر » المتغطرس الشرس أن يفرض على تلك الشعوب ثقافته وعقيدته ـ اليهودية المسيحية ـ وأسلوب معيشته فى السلوك والعلاقات الأسرية . واستقر فى تفكيره وتخطيطه أنه (المستعمر الغربى) هو الأب المعنوى والروحى لشعوب المستعمرات ، وأن سعادته وهناءه هو ، وسعادة و « رقى » هؤلاء ، لا تكون إلا باتباع نظام معيشته ، ومفاهيم حضارته ماديًّا وروحيًّا، والقضاء على ما يعترض ذلك ، أو يعادى مبادىء الغرب (٣) .

منذ البداية ، كان المكسب والنفع من أهم الدوافع والأهداف لتقوية الممالك والدول والإمبراطوريات . وكان اعتماد أوروبا المتنافسة صناعيًّا يرتكز على جلْب المواد الخام ، لتزويد المصانع والورشات باحتياجاتها اللازمة للإنتاج . وبعد أن كان اعتماد بريطانيا المتزايد ـ مثلا ـ على القطن

(٣) A History of the world - J. A. Grenville .

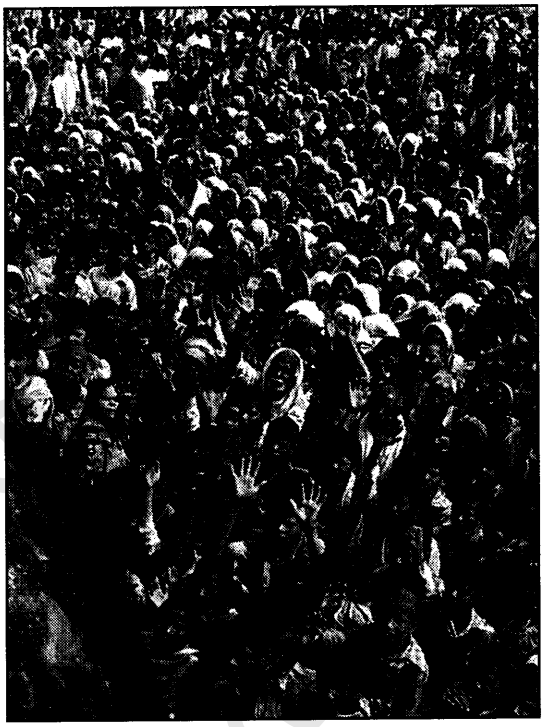

لصناعة الملابس ، وكذلك على النيكل والمطاط والنحاس ، أصبحت متلهفة على استجلاب مواد الطعام من الحبوب ، واللحوم ، والفاكهة ، والسكر ، والشاى، والبن ، لتغذية شعبها المتزايد عدداً ، فأمدتها مستعمراتها فى أفريقيا والهند وأستراليا وأمريكا بوفرة من تلك الاحتياجات . وبمرور سنوات القرن العشرين ، صار البترول (زيت النفط) ضرورة حيوية متزايدة ، لا غنى للصناعة وللحياة اليومية عنه . وعبْر بحار العالم ، حملت السفن البريطانية ـ وهى أكبر أساطيل العالم فى النصف الأول من القرن ـ حملت تلك المواد من بلاد المستعمرات .. فكانت تلك البلاد ذات فائدة مزدوجة : فهى مصدر رئيسى للمواد الخام ، وهى سوق تجارية رائجة لمنتجات المستعمِر المصنَّعة.

دولة واحدة فقط خارج أوروبا هى التى نافست فى الصناعة ، بل وتفوقت منذ العِقدين الأوَّلَيْن من القرن العشرين : الولايات المتحدة الأمريكية . وبين عامى ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، كانت أوروبا والولايات المتحدة تحتكران الغالبية العظمى من التجارة العالمية التى تضاعفت فى تلك الفترة من السنين . ودخلت الولايات المتحدة فى منافسة من أجل الحصول على المواد الخام ومواد الطعام، رغم ثرواتها الطبيعية الهائلة .

وانفتحت أمام أوروبا مجالات واسعة للاستثمار النامى فى مناطق العالم المختلفة ، فى مشروعات مثل : السكك الحديدية ، وإقامة المصانع وتشغيلها بأيدٍ عاملة رخيصة ، وقُرب مصادر المواد الخام ، وفى المناجم ، وذلك فى أفريقيا، وآسيا ، وشمال وجنوب القارة الأمريكية ؛ فأضيرت دول المستعمرات لاستنزاف كنوزها وطاقات أبنائها بثمن بخس .

ثم تصاعد التنافس الحاد فى التجارة ، وفى الحصول على المواد الخام والاستثمار الخارجى ، ولم تسْلم الولايات المتحدة من حُمى هذا التنافس الساخن. تلفتت حولها تبحث عن « مساحة » خالية تصلح لبسط نفوذها وسيطرتها مثل الآخرين ، فلم تجد إلا .. الصين.. فقفزت الإمبريالية الأمريكية قفزة جريئة واسعة لها أهمية كبرى ، عبر المحيط الهادى ؛ فضمت إليها هاواى ، واحتلت الفلبين (عام ١٨٩٨) . وعارضت بشدة فى تقسيم الصين إلى مناطق نفوذ اقتصادية .

وبمرور السنين تطورت علاقة متنامية ذات طابع خاص بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين ، لها صلة مباشرة بنشوب الحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان عام ١٩٤١ ، وما ترتب عليها من نتائج فى مجرى التاريخ العالمى .

وفى بداية القرن العشرين ـ رغم كل ما ذكرنا ـ سرى تيار ـ وإن بدا ضعيفاً ـ فى أوروبا، وحتى فى بريطانيا ذاتها ، مناهضاً للإمبريالية الاستعمارية التوسعية، خاصة من الناحية الأخلاقية . ثم قوى هذا التيار ، وعلا صوته مع مرور سنوات القرن . ولم يكن ذلك بدافع الحرص على مصالح شعوب المستعمرات ، ورَدّ الحقوق المغتَصبة إليهم، وإنما بدافع الخوف من أن التمادى يثير الأعادى ، وقد تتشابك الأيدى ، فتنشب الحرب، ويَعْقبها دمار وكرب .

وحدث شىء ملفت للنظر فى أوائل القرن العشرين ...

فلقد حمل التوسع المتزايد فى مظاهر قوة الغرب ، حمل فى داخله بذور تدمير نفسه بنفسه . لم يكن مطلقاً تميزاً ، ولا تفوقاً فى الجنس أو العِرْق أن يُمنح الرجل الغربى قدرة على تنظيم المجتمع ، واختيار شكل معين لأسلوب الحكم ، وزيادة إنتاجية المصانع والمزارع . ولقد نقل الغرب معارفه إلى بقاع شتى من العالم ، وزاد أبناء المهاجرين الأوربيين إلى الولايات المتحدة مستويات الإنتاج ـ كمًّا وكيفاً ـ تَفُوق أحياناً مستوياتها فى دول المنشأ الأوروبية .. لكن ذلك لم يكن حكراً على الرجل الأبيض .. الأوروبى . فقد أثبتت اليابان فيما بعد أنها تستطيع التفوق والسبق فى معدلات الإنتاج

طريقة بشعة استخدمها المستعمرون لعقاب وتعذيب المذنبين الصينيين فى أوائل القرن. وقد يستمر المذنب (مدنيا أو سياسيا) على هذا النحو لشهور أو أعوام ومن العسير جدا عليه تناول طعامه بيده أو قضاء حاجته.

ومستوياتـه ، فكانت أول مـن نـافس الغـرب وفـاز .

وفى الوقت نفسه ، استقر فى الأذهان ـ بعد حرب الاستقلال الأمريكية ـ أن شعباً مستعمراً فى بقعة ما ، لا يمكن أن يظل إلى الأبد خاضعاً لشعب آخر يحكمه من بعيد .ومنذ عام ١٩٠٠ ، تحققت انتصارات بالتراضى أو بالحرب للمطالبين بالحكم الذاتى، أو بالاستقلال الوطنى ، حتى بين أولئك المنحدرين من أصل أوروبى ، الذين أصبحوا أستراليين ، أو برازيليين ، أو أرجنتينيين ، وكنديين ، وجنوب أفريقيين . إنها انتفاضات وطنية تحررية ، قادها رجال بيض من أصل أوروبى . ومع ذلك .. ظل وهماً خادعاً ماكراً أن يسود الاعتقاد بأن الروح الاستقلالية ، أو النزعة التحررية يصعب أن تنمو وتتصاعد وتتطور بين الشعوب السوداء فى أفريقيا مثلاً فى المستقبل المنظور، أو بين الشعوب الأخرى ـ غير البيضاء ـ فى المستقبل القريب . وضربت مصر المثل ـ بثورة الاستقلال عام ١٩١٩ ـ على هشاشة هذا الوهم ، وسُخف هذا الخداع ، وعلى أن الحرية الفردية والوطنية غريزة وركيزة ، وأن الناس لآدم، وآدم من تراب ، فلا فضل لجنس على جنس ، ولا امتياز لشعب عن شعب ، ولا حق لتسيد أبيض على أسود ، أو أسمر ، أو أصفر . وظل الغرب من بداية القرن ـ وما زال ـ يحسب ألف حساب للجنس « الأصفر » ويخشى خطره : الصين واليابان .

كان لمحاولات « زرع » اللغة والثقافة الأوروبية وتقاليد السلوك الغربية هدف راسخ، هو : تثبيت دعائم الاستقرار والتبعية للمستعمر .. وكان على الأفارقة والهنود والصينيين واليابانيين أن يرضخوا للثقافة الوافدة واللغة ، وأن يُذْعن البعض منهم ـ المنتفعون ، والمتطلعون للمناصب والتميز ـ للعادات والسلوك ، ويورثونها لأبنائهم .وفى مجال الصناعة ، كان لابد للبضائع المنتَجة فى القاهرة ، ودلهى ، أو طوكيو ، وهونج كونج ، أن تكون على نمط المصنوعات المنتَجة فى الغرب وبشروطه ، ولو على حساب الصناعات المحلية ، والبيئية الوطنية ؛ فكان ذلك .. مدعاة لميلاد شعور بالمقاومة والتصدى ـ بدافع الوطنية ـ لمآرب السيطرة الغربية ، ومحاربتها بأسلحتها ـ نفسها ـ العلمية والتكنولوجية ، وأيضا الحربية .. فلما انتزعت تلك الشعوب استقلالها، حرصت ـ بقوة وعزم ـ على استرجاع وتثبيت تقاليدها وتراثها وثقافتها ، وإن امتزجت بالمعارف والمكتسبات الجديدة ، فتميزت شخصية كل منها بقدر ما أفلحت فى ذلك أو فشلت . وظل العالم مجزأ ، وعلى قدر كبير من الاتساع ، يحول تباينه دون تجمع عدد من الدول

فى منظمة واحدة ، تخضع لسيادة فرد واحد ، أو ثقافة واحدة ، فيما عدا مجموعة شعوب الدول العربية .

وفى عام ١٩٠٠ ، كانت الدولة (ويطلقون عليها أحياناً لضخامتها : الإمبراطورية) العثمانية تمتد من البلقان فى قلب أوروبا إلى المحيط الهندى ، مروراً بالشرق الأوسط . وكانت مطمع القوى الأوروبية جميعها . وكانت الدول المستقلة ـ أو شبه المستقلة ـ داخل تلك الإمبراطورية أضعف من أن تقاوم الغزو الأوروبى : السياسى والاقتصادى ، ولكن بعض حكام تلك الدول نجح ـ إلى حد ما ـ فى الحفاظ على استقلاليته بالمراوغة والمناورة بين القوى الأوروبية المتنافسة .واستغرق تقسيم دول الشرق الأوسط بين القوى الكبرى وقتاً طويلاً ، وجهداً متعاظماً ، نظراً إلى حساسية ظروفها ، وموقعها الاستراتيجى العالمى ، ولأنها فى الطريق المباشر بين أوروبا ومستعمراتها فى أفريقيا وآسيا، خاصة بالنسبة لبريطانيا ومصالحها فى الهند . وكانت الثقة مفقودة بين بريطانيا وروسيا الطامعتين فى التهام أكبر قدر من الإمبراطورية المريضة .ووضعت روسيا عينها على فارس (إيران) لاقتسامها مع بريطانيا ، طمعاً فى وصولها (أى روسيا) إلى البحار الدفيئة ، وخطوط التجارة العالمية . وامتد التنافس بين الروس والإنجليز إلى أكبر دولة سكانية فى العالم : الصين ، التى كان شعبها فى عام ١٩٠٠ يربو على أربعمائة مليون نَسمة .

تناست أوروبا أحقادها وتنافسها فيما بينها إزاء مطامع روسيا فى الصين ؛ فتضامَّت لمواجهة تلك المطامع ، وأمدت الصين بالأسلحة لمقاومة روسيا ، وهى ـ أى أوروبا ـ فى الواقع تحافظ على مصالحها ، إذ كان من العسير عليها ـ رغم الإمداد بالمال والسلاح ـ أن تحكم دولة (الصين) بهذا الاتساع والكثافة السكانية .. لكن النفوذ الأوروبى المتزايد أفلح فى استمالة القائمين بالسلطة المركزية فى بكين .واستحوذ الغرب على امتيازات ومواقع تجارية ، وحصل على قواعد استراتيجية فوق الأراضى الصينية ، وأجبر الصين على قبول ترتيبات شبه استعمارية دولية . وأصبحت شنغهاى مركزاً أوروبيًّا للتجارة . ووسعت بريطانيا مستعمرتها فى هونج كونج ، وفرضت على الصين أن تؤجر لها تلك المستعمرة ، ففكرت روسيا فى الاستيلاء على أجزاء من أراضى الصين الشمالية (وسوف يأتى تفصيل ذلك) .

بلغ الاستعمار الأوروبى ذروته فى أوائل القرن العشرين . ولم تجد الولايات المتحدة الأمريكية منفذاً للتوسع وبسط النفوذ مثل أوروبا ، سوى بعض الجزر فى المحيط الهادى . ولكن حتى ذلك الوقت .. لم تتنازل أوروبا

اليابان

عن كبريائها وتدعو الولايات المتحدة إلى الدخول فى معترك المنافسة ، والمحافظة على توازن القوى فى شرق آسيا ، الذى تهدده روسيا بالفعل . وجاءت هذه المهمة من جانب دولة فى شرق آسيا ، هى : اليابان .

لم تتعرض اليابان ـ مثل الصين ـ فى عام ١٩٠٠ للغزو المباشر من أوروبا (ولكنها ستخضع للنفوذ الغربى ، عن طريق الولايات المتحدة فيما بعد ، مع منتصف القرن). ونجحت بريطانيا ـ أقوى دول الاستعمار الأوروبى آنذاك ـ فى عقد تحالف عام ١٩٠٢ مع السلطة الحاكمة باليابان .

وأصبحت المصالح الأوروبية عالمية ، متشابكة ومتضاربة . ولاح فى الأفق ، وخطر على أذهان القادة والسياسيين ، بوادر توقع أزمات واحتكاكات لا تُحمد عواقبها . إن هذه القوى الأوروبية ـ مجتمعة ، وعلى مستوى العالم ـ لها السيادة والسيطرة . أما على المستوى الأوروبى ، وفيما بينها ، فهى متفرقة متنافسة . ووجد القادة والزعماء السياسيون الأوروبيون أنفسهم قد وقعوا فى شِراك الخصومة والنزاع الحاد العنيد داخل قارتهم ، واستقر فى يقين كل دولة من دول هؤلاء ، أنها قادرة على مواصلة النمو ، والمحافظة على مكانتها وقدرتها ونفوذها كقوة عالمية .

كان طبيعيًّا إذن أن يزداد التسابق على امتلاك وتطوير وتصنيع الأسلحة . إنه سباق متسارع محموم ، يتسق مع اقتراب نُذُر الخطر ، وارتفاع حرارة المنافسة، وثقل الضغوط ..يضاف إلى ذلك .. تصاعد الأفكار الجديدة ، وما يحدث من تغيرات اجتماعية داخل الدول الأوروبية ـ خاصة فى ألمانيا القيصرية ـ وارتفاع صوت طبقة أو فئة ناشئة متنامية فى المجتمع ، تلح فى المطالبة بحقوق ، ومكاسب ، ورغبات ، ومشاركات فى السياسة ، واتخاذ القرارات ، فى فترة بالغة الحساسية والتعقيد محليًّا وعالميًّا .

وليس مُقنعاً ، ولا مبرراً كافياً ، ذلك الرأى القائل بأن نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) كان دافعه وطنيًّا « هروبا من مواجهة فاشلة مع الأزمات الداخلية » ، حتى فى داخل ألمانيا ذاتها .ومن ناحية أخرى ... لا يحتاج التبرير إلى تأكيد بديهية أن الحروب قد تنشأ بين الدول ، لأن قادتها أو زعماءها ـ ببساطة ـ يفقدون الأمل ، أو الرغبة ، أو القدرة على التعايش معاً فى أمن وسلام. وليس من الصواب أيضاً الإقرار بتفسير دافع الحرب ـ ببساطة ـ من منطلق الضرورة التى تحتم التوسع ، وحيازة أراضٍ جديدة . ربما كان هذا جائزاً بالنسبة لليابان مع روسيا بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٠٥ ، لكنه يستحيل أن يتطابق مع ما حدث فى الحرب العظمى (١٩١٤) . ولقد

كان الاعتقاد السائد لدى الدول التى تُطلق على نفسها تعبير « القُوَى الكبرى، أو العظمى » أن تنامى الدول،أو انحطاطها يستدعى بالضرورة نشوب حرب فيما بينها ، والقوىُّ فيها يهزم الضعيف ، ليقتسم الأقوياء الآخرون ممتلكاته.

الإمبراطور الألمانى بين جزالاته .

وفى عام ١٩٠٠ ، كان الواضح المشاهَد أن بعض الإمبراطوريات تترنح ، موشكة على الاحتضار ، وأن الدول الأقوى تتنافس بشدة فى حماية أراضيها الوطنية ،أو ممتلكاتها خارج حدودها .. وفى مقدمة هذه الدول :« القوى العظمى » الأوروبية ، واليابان .ولكن ، فى السنوات السابقة مباشرة على الحرب العالمية الأولى ، تغيرت المفاهيم والمواقف : استدارت القوى العظمى ، ليُواجه بعضها البعض ، يسيطر عليها الاعتقاد الخاطىء المخاطر بأن البعض لابد أن يموت إذا أراد الآخرون أن يحتفظوا لأنفسهم بالحياة فى أمن وسلام(٤).حتى ألمانيا ـ وكانت آنذاك الأقوى بينهم ـ لم تكن فى مأمن . هكذا كان أيضاً اعتقاد جنرالات القيصر الألمانى إزاء تهديدات مجموعة الدول المناوئة لألمانيا . وربما كان هذا أحد الأسباب الخطرة الرئيسية ، التى أدت إلى تعقد العلاقات الدولية ، ودفعت بسحب متكاثفة مظلمة نحو ساحات القتال ؛ لتمطر « قذائفها » المدمرة على مدى أربع سنوات . وسوف نتناولها بالتفصيل فيما بعد بإذن الله.

حروب البلقان

قبل طلوع فجر القرن العشرين ، كانت منطقة البلقان جميعها تُحكم من استانبول ، مقر الخلافة العثمانية ،ومركز الدولة متعددة الشعوب والجنسيات . القسم الغربى الأوروبى من تلك المنطقة كان كثيف السكان ، فقيراً ، ريفياً ، ويقع على الحدود المتاخمة للإمبراطوريات المسيحية ، خاصة النمساوية الكاثوليكية ، والروسية الأرثوذوكسية ؛ فادَّعت كل منهما لنفسها

(٤) إنه نفس الاعتقاد الخاطىء الآثم الذى « بَرَّرَ » به إخوة يوسف عليه السلام قتْله : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يَخْلُ لكم وجْه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين » سورة يوسف / ٩ . ومن عجب أنْ يكون قتل الأخ الصالح ـ بلا ذنب أو جرم ـ مدعاة لصلاح بقية الإخوة الأشرار !! . لا جديد إذن تحت الشمس . . فالإنسان هو الإنسان ، منذ أن خُلق وكان .

حق حماية الرعايا البلقانيين المسيحيين ، كذريعة لتقوية نفوذها داخل الدولة المريضة .. لكن المستفيد الأكبر من ضَعف العثمانيين ، كان دعاة القومية والاستقلال من سكان البلقان . وبالفعل ، تحقق لهم ذلك بالتتابع . استقلت صربيا ، ورومانيا ، ثم اليونان . وحصلت بلغاريا على الحكم الذاتى فى نطاق الدولة العثمانية ، وضَمت امبراطورية النمسا الهابسبورجية إليها البوسنة والهرسك ، وسنجق (مديرية) نوفيبازار ؛ فانحضر نطاق السلطة العثمانية فى ألبانيا، ومقدونيا (شمال اليونان) ، ثم ضُمت أجزاء صغيرة متفرقة (وسط هذا الخليط المتشابك) إلى اليونان ، وإلى بلغاريا .

فى مقدونيا بقلب البلقان سنة ١٩٩٦ وكأن الحياة لاتتطور .

أضاف استقلال تلك الدول إلى شعوبها مشكلات معقدة جديدة .. فهى فقيرة، متخلفة اقتصاديًّا ، ريفية. وزادتها الكثافة السكانية التى انتقلت إليها (داخل حدودها الجديدة) ارتباكاً، وفقراً ، وتجزئة للأراضى .. فكان ما تملكه الأسرة الريفية من الأرض لا يكاد يكفى محصوله لسد حاجتها من الطعام؛ فكان المهرب من ذلك : الهجرة .. إلى الولايات المتحدة ، أو إلى المدن المجاورة، التى لا تملك استعداداً لاستقبال وافدين بأعداد كبيرة ، ولم تكن صناعاتها مزدهرة ؛ فتضخمت مشكلاتها .. فرومانيا ـ أكثر تلك الدول البلقانية تقدماً فى الصناعة ـ لم تزد فيها نسبة مساهمة الصناعة فى الاقتصاد القومى عن ١,٥٪ عام ١٩١٤ .

كانت تكاليف إنشاء الدولة المستقلة فى منطقة البلقان باهظة ، وثقيلة على كاهل الشعب .. فكان على الدولةأن تقترض ، وأن تنفق على إنشاء الطرق ، والسكك الحديدية ، وتسليح الجيش . وكانت السلطة مركزة فى أيدى أُسر ملكية حاكمة ، مع قِلة من صفوة القادة العسكريين والسياسيين ، إلا أنه مع بدايات القرن العشرين ، تزايدت قوة الكتل الجماهيرية المتضامنة لحماية النظُم الدستورية القائمة ، ولم تتوقف عن المطالبة بالإصلاح والتطوير ، خاصة بعد أن نجح زعماؤها فى شغْل مقاعد بالمجالس التشريعية (البرلمان). ووقعت مصادمات .. فى رومانيا ، عام ١٩٠٩ ، حيث تصدت السلطة الحاكمة بالسلاح للكتل الجماهيرية الريفية المطالبة بإصلاح أحوالها المتدهورة ، وراح ضحية ذلك نحو عشرة آلاف قتيل . وفى العام نفسه حدثت مصادمات

فى اليونان ، تدخّل فيها الجيش الذى اختار لتولى السلطة زعيماً وطنياً مستقلاً لتنفيذ برامج الإصلاح .

وجدت معظم تلك الدول الناشئة الضعيفة الفقيرة عوناً وتعاطفاً من جانب روسيا ، التى كانت تطمع وترتب للاقتراب من قلب الدولة العثمانية الموشكة على الانهيار ، حتى تنقض عليها فى الوقت المناسب ، وتفوز سريعاً بنصيب من تركتها .. فعقدت روسيا مع تلك الدول الصغيرة البلقانية معاهدات واتفاقيات حول عام ١٩١٢ . لم تكن روسيا فى الواقع تريد لهذه الدويلات أن تقوى وتزدهر ، حتى تظل فى حاجة إلى مساعدتها ، وحتى لا تتعرض بسوء لطموحات روسيا وسياساتها فى المنطقة مستقبلاً . لذلك .. حذّرت روسيا والنمسا تلك الدويلات من التخلى عن مساندة الدولة العثمانية إذا اقتضى الأمر .. لكن هذا التحذير ذهب هباء .

ففى أكتوبر عام ١٩١٢ أعلنت مونتنجرو الحرب على الجيش التركى ، وانضمت إليها صربيا واليونان وبلغاريا ، فتجمعت جيوشهم البالغ عددها سبعمائة ألف جندى إزاء نصف هذا العدد أو أقل من جنود العثمانيين الأضعف سلاحاً وغذاء ومالاً ، إذ إنهم لم يتسلموا رواتبهم منذ عدة شهور ؛ فكانت النتيجة متوقعة . وانحسر نطاق الحدود التركية الأوروبية فى إستانبول ، ومنطقة صغيرة حولها . ثم وقع الخلاف بين دويلات البلقان عندما تصادمت المصالح والأطماع : أعلنت بلغاريا الحرب على الصرب اليونان (١٩١٣) ، وسرعان ما لحقت بها الهزيمة . وقسِّمت مقدونيا بين

تغير زى وسلاح وتدريب جنود الدولة العثمانية أوائل القرن العشرين مع حروب البلقان .

جنود الدولة العثمانية فى أواخر القرن ١٩ .

صربيا واليونان . واستقلت ألبانيا تحت وصاية لجنة من القوَى العظمى . وارتفع صوت الوطنية والقومية المنتصر . واشتد غيظ روسيا والنمسا ، وضاق صدر كل منهما بسبب ضغوط دول القوى العظمى وإمبراطورياتها متعارضة المصالح ، مسعورة الأطماع .. فكان ذلك نذيراً بالانفجار .. والحرب .

ملحمة صينية

جمال عبد الناصر

أحمد سوكارنو

جوزيف تيتو

ليست هذه ملحمة يقطّع فيها اللحم ويتّجر به ، وإن كنا سنطّلع على لحوم كثيرة تُمزق، وعظام تُهشم ، ورءوس تُفْصل ، ودماء بشرية تسيل ...

وإنما هى ملحمة ، أى مجموعة وقائع عظيمة فى الاضطراب والشدة والفتنة كما تقضى اللغة ، وكما أرادت الأقدار أن تُنسج مأساة أمة ضخمة ، اجتمع على نهشها وإذلالها قادة الاستعمار ، ودول القوى الكبرى فى مطلع القرن العشرين .

إنه درس ثمين للأجيال ، لا يجب أن يُنسى ... أن تتعرض الصين ـ وشعبها المكون من ٤٠٠ مليون نسمة فى عام ١٩٠٠ ـ لأبشع صور النهب والاستنزاف والمهانة والغبْن ، فكانت بحق مثالاً مفزعاً للأطماع الاستعمارية ، والمنافسات الإمبريالية ، لا يكاد يصدَّق . وهو يفسر شعور الصينيين المتسم بالنفور والمَقْت والحذر الشديد ـ طوال القرن العشرين ـ نحو الغرب وقياداته . ولعله هو الشعور نفسه الذى كان ملازما لغاندى فى الهند (نحو الإنجليز) ، وأحمد سوكارنو فى إندونيسيا (نحو الهولنديين) ، وتيتو فى يوغوسلافيا (نحو فرنسا) ، وعمر المختار فى ليبيا (نحو إيطاليا) ، وجمال عبدالناصر وكل الشعب فى مصر (نحو بريطانيا وكل أشكال الاستعمار)... ولا نريد أن نستبق الأحداث .

طلع فجر القرن العشرين على الصين ، وهى ـ لسوء حظها ـ تحت حكم امرأة ، قُدر لها أن تقبض على زمام السلطة نحو نصف قرن (١٨٦٠ ـ ١٩٠٨)، عبثت فيها ، واستبدت ، وخرَّبت ... كانوا يسمونها « بوذا العجوز» ، ويصفونها بأنها : « جاهلة ، فاسدة ، لا ضمير لها ، ولا أخلاق ، مسيطرة ، متغطرسة ، خُلقت لتأمر ..ذات قدرة عجيبة على القيام بمؤامرات البلاط ، لديها شعور دفين ـ مثل القط ـ بتوقع الخطر ، وقدرة فذة على الانقضاض على غِرة ، والقضاء على أعدائها ، مع فقدان ضميرها لكل وازع أخلاقى أو رادع ، لا تُلقى بالاً إلى الروابط العائلية ، أو العلاقات الإنسانية ، باستثناء

« جنج لو » العاشق الأثير ، فكانت أهواؤهـا ونزواتهـا مقدَّمـة عندهـا علـى مصالح الصين وأحوال شعبها » (١).

والعجيب أنها لم تكن أميرة ، ولا سليلة الأسرة الإمبراطورية الحاكمة ، بل كانت « أَمَة » من إماء الإمبراطور هيسان ـ فنج ، وضعت له غلاماً ، أصبح ولى العهد ، فرفعها الإمبراطور إلى مرتبة المحظية الأولى ، وقد تجاوزت سن العشرين بقليل ! . وسرعان ما استحوذت على قلب الامبراطور وفكره ؛ وأصبح لها نفوذ عظيم ، وتأثير على قراراته . هكذا كانت « تزو ـ هِى » ، ومعناها : الأم الحنون المباركة .

ولما توفى الإمبراطور ، قرَّبت إليها ـ علانية ـ قائد الحرس ـ جنج لو ـ صديق صباها ومحبوبها القديم ، وتمكنا معاً من الإطاحة بكبار الشخصيات المناوئة لها، والقضاء على مؤامرة دبرها رءوس أمراء المانشو الذين أرادوا استرجاع حقوق أسرتهم الحاكمة . ولما كانت الإمبراطورة الزوجة (زوجة الإمبراطور الراحل) سيدة ضعيفة الرأى والشخصية ، واهيـة الفكـر والإرادة ، فقـد استطـاعت تـزو ـ هـى أن تتصـدى للحكـم ،

*** الإمبراطورة « تزو ـ هى » تحيط بها وصيفاتها، كما صورها فوتوغرافيًا أحد أمراء المانشو . وكانت تحرِّم على أى شخص من الرعية الاقتراب منها ، ولمسافة بعيدة ، علوًا واستكبارًا.**

(١) Asia and Western Domination - K. Panikkar .

obeikandl.com

وتتصدر السلطة، وقد أصبحت أحد الأوصياء على العرش إلى أن يكبر ابنها الصغير .

كان أول اختبار لها وإظهار لمقدرتها ، مواجهة جماعة دينية تحركت فى عصيان عنيف ، يحركه فى الخفاء الاستعمار الأجنبى ، عُرف باسم «تمرد تيبنج»[٢]. وخلاصة الأمر : أن جماعة من الشعب ساءها هوان وسوء أحوال البلاد ، وحماقة وابتذال القصر ، وضعف وفساد الحكومة ، وتمادى الأجانب فى فرض النفوذ واحتلال المواقع ؛ ففكرت ـ ولا غرابة فى ذلك ـ أن تثأر لكرامة الوطن ، ومقاومة إذلاله وقهره واغتصاب حقوقه ... لكن الخطر جاء من ناحية المبشرين .. فقد سبق أن أشرنا إلى استعانة الاستعمار بجماعات من المبشرين المسيحيين ـ على اختلاف مذاهبهم التى تسمح بذلك ـ واستخدامهم كطلائع وركائز لأهدافه وسياساته .. فنجح بهم فى بعض البلاد ، وأخفق فى أخرى ، ولكن فى الصين بالذات ، كان الأمر مختلفاً تماماً ، نظراً إلى طبيعة الشعب الصينى ذاته : ثقافة ، وحضارة ، وفلسفة ، وعقيدة ، وأسلوب حياة .. فاختلطت العقيدة بالخرافة ، والتعاليم بالأساطير ، والحقيقة بالزيف ، والإيمان بالخيال .. الجامح أحياناً، حتى إن بعض زعماء الجماعات الدينية السرية ـ التى زادت وانتشرت ـ توهم أنه مبعوث السماء لإزالة الشرور ، وإصلاح الفساد،وتخليص العالم .. بل إن بعضهم زعم أنه تجسيد للمسيح ـ عليه السلام ـ وأنه هو المسيح الجديد ، أو أنه روح الإله . من هنا ينفذ الخطل والخطر: قد تبدأ الدعوات بسيطة ، سلسة ، معقولة ، مقبولة ، ثم تميل كل الميل وتنحرف ، فتغوص فى متاهات ، وتتخبط ضاربة فى ظلمات ، فتسىء من حيث أرادت فى البداية النفع ، وتدمر من حيث ابتغت فى نشأتها البناء .

ثم نُسجت حول هؤلاء وهؤلاء قصص خيالية وحكايات ، ونُسبت إليهم خوارق ومعجزات ، والبسطاء المحرومون الفقراء ـ مع الجهل والعَىِّ ـ يصدِّقون ويصخبون ، والشباب الضائعون التائهون التعساء يتحمسون ، والأيدى الأجنبية الخفية تغذى الغضب ، وتشعل نيران الحماس ، لتزداد السلطة الحاكمة ضعفاً وارتباكاً ؛ فيزداد هو تمكناً ، وفرضاً للوصاية .

فى عام ١٩٠٣ حمل المبشرون الكاثوليك أسلحة للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم ضد الثائرين الغاضبين من الوطنيين الصينيين.

---

(٢) The Taiping Rebellion .

تصاعدت خطورة الموقف عندما امتزج التعصب الدينى المتطرف المشوب بالغضب ، الناقم على أسرة المانشو ورموزها الحاكمة ؛ فأوشكت الثورة على الانفجار فى كل أرجاء الإمبراطورية . وكانت البداية مشجعة : استولى الثوار بسهولة على مدن كبيرة ومقاطعات ، واستمر هذا التمرد الثورى أربعة عشر عاماً ، أصابت البلاد بنكسة فادحة ، ودمَّرت ـ بدافع الهوس الدينى الغث ـ مكتبات إمبراطورية عامة ، كانت عامرة بكنوز المؤلفات والمخطوطات

مدينة كيفنج الصينية نظم حاكمها (عام ١٩٢٠) قوة فرسان مسلحة قوامها أكثر من ٢٠ ألف جندى .

والموروثات ؛ فضاعت إلى الأبد ، وحطمت مدارس وجامعات ، باعتبارها رموزاً للوثنية والضلال تتلف عقول الشباب .

وفى غمرة هذه القلاقل والتخريب ، أعلنت مقاطعة سينكيانج ـ بالشمال الغربى ـ استقلالها كمقاطعة إسلامية ، بزعامة رجل تصفه المراجع « بالقوة والاقتدار » يُدعى يعقوب بك ، شرع بالفعل فى إقامة علاقات مع الدول الأجنبية . والغريب المدهش أن وزارة الخارجية البريطانية اقترحت على الحكومة الصينية آنذاك « أن مصلحة الصين تقتضى إقامة مملكة إسلامية بآسيا الوسطى تحت حكم يعقوب بك » !؛ فكان رد الحكومة الصينية : إذا شاءت بريطانيا قيام دولة إسلامية ، فعليها أن تعطيها أرضاً بالهند (درة التاج البريطانى) !.

واقتراح بريطانيا ينطوى على دهاء خبيث من عدة جوانب ، أبرزها : أن تمرد الجماعات الدينية الصينية كان يستهدف أولاً الإطاحة بالأسرة الإمبراطورية والسلطة الحاكمة وأتباعها الفاسدين المفسدين . أما عصيان

كان المتبع فى تلك الفترة قطع رأس الثائرين ضد الفساد والاستعمار المتعدد الجنسيات، وذلك فى ميدان عام ووضع رأس الذبيح بين قدميه لإرهاب الجمهور .

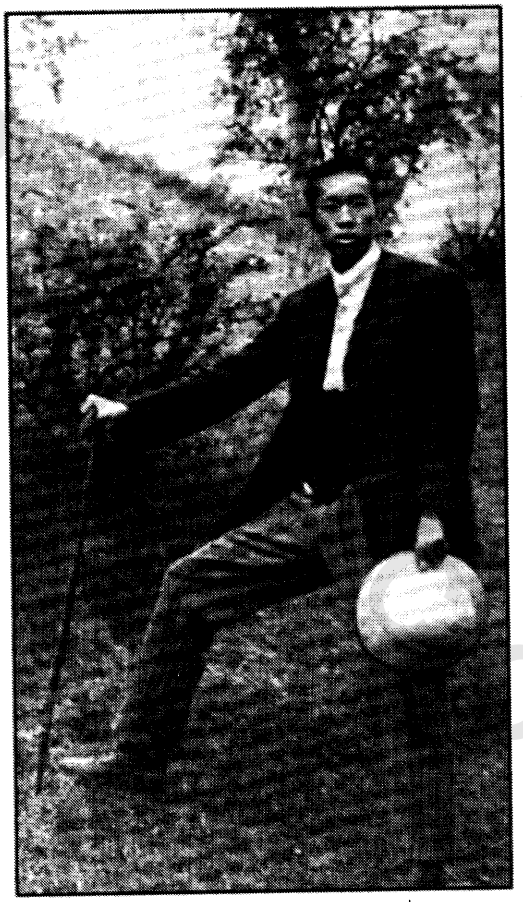

فى مطلع القرن تأثر عدد قليل من ضعاف النفوس الصينيين الشباب بالمظاهر والأزياء الغربية الاستعمارية واستاء منهم الشعب .

المسلمين وإعلانهم الاستقلال ، فإنه يعنى التمرد على الصينيين أنفسهم ، والانشقاق عنهم ، فتشتعل جذوة البغضاء بين الفريقين . ومن ناحية أخرى ... لعل بريطانيا كانت ترمى ـ فى خططها البعيدة ـ إلى استمالة مسلمى وسط آسيا ، وتجميعهم لجذْبهم إليها ، أو استخلاصهم لنفسها من قبضة ومطامع الدب الروسى المتحفز للتوغل نحو الجنوب .

استعانت الإمبراطورة الوصية (تزو ـ هى) بثلاثة من أكبر وأشجع قوادها ، وتمكنت بهم من القضاء على التمرد والعصيان ، ثم ساد الصين لسنوات قدْر من الهدوء والاستقرار ، فانتعشت التجارة ، وتحسن الاقتصاد، وتدعمت السلطة الحاكمة فى العاصمة والمقاطعات بكفاءات من ذوى الخبرة العالية ، لكن القوى الأجنبية (خاصة بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة) لم تتوقف عن محاولات إضعاف سلطان الحكومة المركزية فى المقاطعات النائية ، وفى مدن السواحل ، واستخدمت فى تحقيق ذلك .. كل الوسائل ، ومنها الادعاء التقليدى المعهود : حماية الأقليات الدينية المسيحية ، وحرية العبادة والفكر .

فُرضت على الصين معاهدات مُجحفة ، وأحياناً مُخجلة : فهى تسمح ـ بلا شروط ولا تحفظات ـ بإقامة الأجانب بالموانىء المفتوحة للتجارة ، ومباشرة الأعمال المالية على طول سواحل الصين شمالاً وجنوبا (ومنها الموانىء الكبيرة،مثل : كانتون وشنغهاى) وأيضاً فى المدن الداخلية إلى بُعد ألف وخمسمائة كيلو متر من السواحل . وسُمِح لهم أيضاً بإقامة المؤسسات

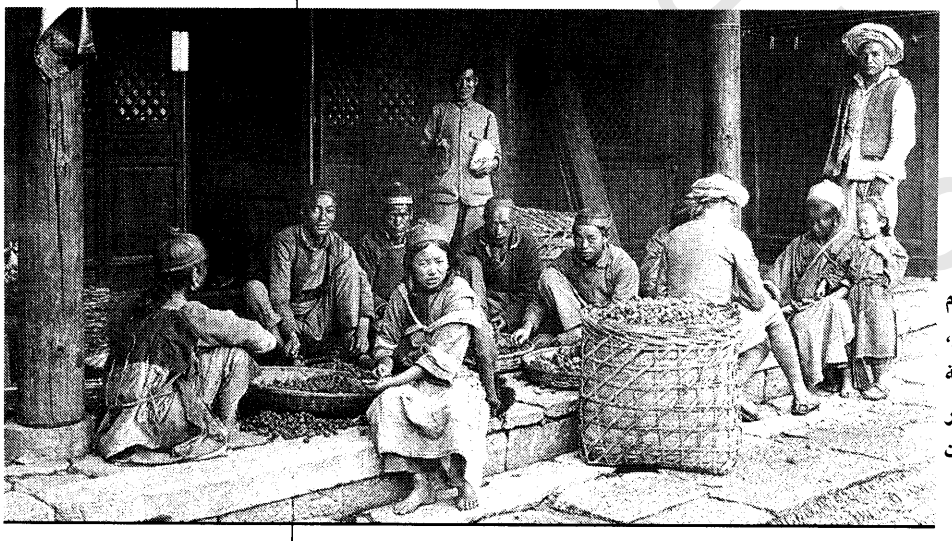

الصين فى عام ١٩١٥: فقر ، وقهر، وسلطة حاكمة عابثة لاهية، واستعمار متعدد الجنسيات طاغٍ مستنزِف مذل .

* مظاهرة شعبية تصور ثورة الجماهير بالصين وتنظيماتها لإصلاح الفساد وتطهير الحُكم .

فـــرض المستعمـــرون الغربيـون إقامـة الأسوار الشائكة بطول الشوارع بالمدن الكبرى الصينية لعزل الأهالى فى ممرات ضيقة، ولإبعاد الثوار عن مصالـــح وممتلكـــات الأجانب الغاضبين.

والمبانى ، والمجمعات السكنية ، والأحياء ، والمحاكم ، والسجون الخاصة بهم وحدهم (بريطانية ، وفرنسية ، وألمانية ، وإيطالية ، وروسية ، وفيما بعد يابانية ...) . وكانت شنغهاى أسوأ مثال على اختفاء سلطة الحكومة الوطنية، حيث يتمتع كل الأجانب والدخلاء بالنفوذ الأعلى فى كل مرافق الحياة اليومية: الإدارة والتجارة ، والشرطة ، والمدارس الخاصة ، والشركات ، والملاهى ، والطرق ... وزوارق وسفن وأساطيل تلك الدول تروح وتغدو بمدافعها وأسلحتها المشْرَعة ، فى دوريات منتظمة بالسواحل والأنهار الكبرى بلا حسيب ولا رقيب. ومُنح الأجانب حق حمل السلاح علانية بالمدن ، كالمسدسات والسيوف .

كان رد فعل الشعب الصابر المسكين سيئاً ، ثم ازداد سوءاً . فوقعت

مصادمات ـ دموية أحياناً ـ مع الأساقفة ، وجماعات المبشرين ، ومع بعض المتنصِّرين؛ فأسرع القناصلة (البريطانيون والفرنسيون خاصة) بالتدخل ديبلوماسيًّا وعسكريًّا ، وبزوارق المدفعية ، لإرهاب السكان الوطنيين ؛ فقُطعت رءوس « المشاغبين المتمردين»، ووقعت مذابح ... فلم يكن غريباً إزاء ذلك أن يتضاعف مَقْت الشعب وكراهيته للأجانب ، ولمن يدَّعون حمايتهم .

* قطع رأس أحد اعضاء جماعة « البوكسرز » الوطنيين بالسيف على مشهد من الصنيين والأجانب.

زادت أحوال الحكومة ضعفاً وهواناً بعد الحرب السريعة التى فرضتْها اليابان على الصين ، واقتطعت منها كوريا ، وتنازلت الصين عن فرموزا (تايوان) وبيكادورس ، وشبه جزيرة لياوتنج فى منشوريا ، ودفعت تعويضات باهظة .. فكانت خسائر الصين فادحة ، ومستواها يهوى إلى الحضيض ، لم تنهض منه بعد ذلك إلا بمرور عشرات السنين .. فكانت نقطة تحول فى علاقات الصين بالغرب ، استمرت آثارها حتى نهاية القرن .

تدهورت أحوال الصين ، ودب الفساد والخراب فى كل المواقع ، وفقدت الإدارة الحكومية كفاءتها تماماً ، واستمر البلاط منغمساً فى ملاهيه وملذاته «يسيطر عليه خصيان جهله ، قد انحطت أخلاقهم ، ولم تبرز للإنقاذ أية قيادة قوية رشيدة ، وفقدت الطبقات الثرية القديمة كثيراً من كرامتها وسلطتها ، نتيجة للاقتصاد الأجنبى المسيطر على الموانىء .. فكانت الصين عاجزة تماماً إزاء أى عدوان خارجى . كانت أسوأ حالاً من أى بلد متوسط الحجم ، محدود الموارد ، ذابل الحضارة » .

أما الأسوأ من ذلك .. فهو تفكير دول الغرب ـ ومعها روسيا واليابان ـ عام ١٩٠٠ فى تقسيم الصين بأجمعها تقسيمًا رسميًّا فيما بينها .. فلما استولت الولايات المتحدة على جزر الفيليبين ، وصارت قوة عظمى بالمحيط الهادى ، تغير الموقف ، وارتبكت السياسات .. فقد طالب وزير الخارجية الأمريكى بأن يكون سداد الرسوم الجمركية فى كل أنحاء الصين وموانيها بمعرفة السلطات الصينية وموظفيها (وليس لممثلى القنصليات الأجنبية) ، كما طالب بأن تعامَل جميع الدول من الصين معاملة واحدة ، لا تفاضل بينها. معنى ذلك : حماية التجارة والمصالح الأمريكية فى كل مناطق الصين ومدنها وموانيها، وعلى قدم المساواة مع الدول الأخرى ، وفى الوقت نفسه ، وحدة أراضى الصين ، فلا يُنتزع منها شىء .

هنا أفاقت « الأرملة العجوز » ـ الإمبراطورة الوصية ـ من غَيِّها وغفلتها ، وانتبه البلاط مذعوراً ، وقد أدرك ما كان يُدَبَّر له ؛ فأصدرت الإمبراطورة أمراً

إلى نواب الإمبراطور بالأقاليم أن يستعدوا لرد أى عدوان مباغت ، ودبَّرت انقلاباً ، استردت به كل مظاهر السلطة ومفاتيح الحكم .

وفات دول الاستعمار أن تضع فى تقديراتها شيئاً على جانب كبير من الأهمية : وطنية الشعب الصينى وحيويته التى ظنوا أنها وهَنَت واندثرت من طول ما قاسَى، وما تعرَّض له ، وما نكب به .

مجموعة من الشباب الصينيين الوطنيين ينضمون إلى تنظيم « الملاكمين » لمقاومة الاستعمار الأجنبى .

هبَّت موجات من الحماس الثائر المتدفق قادمة من أرياف الصين تحت قيادة حركة ، ظهرت لأول مرة سرًّا عام ١٩٠٠ فى « شانْتُنج » ، تسمى نفسها: البوكْسرز أو « الملاكمين » ويسميها البعض : حركة القبضات المتآلفة. وهى فى حقيقة أمرها تحرك وطنى تلقائى صرف . توخَّى : « طرد الأجانب المستغلين الدخلاء ، الذين أهانوا الصين وأذلوها ، واستنزفوا خيراتها ، ورد أشياعهم الصينيين إلى الصواب ، وإلى عقائد الصين ، وفكرها، وثقافتها » . كما أن هذه الحركة أرادت أن تعيد إلى الأسرة الإمبراطورية الحاكمة مجدها وهيبتها ، وإلى البلاط نزاهته وكرامته ونُبله ، (وهنا تبدو سمات مشتركة مع تعاليم طائفة الشنتو الإصلاحية فى اليابان) .

فى عام ١٩٠١ ، بدأ يعلو شأن « البوكسرز » ، فانضم إليهم فى المدن موظفون وطنيون مخلصون ، من الكبار والشباب ، وعضَّدهم حاكم شانتنج ، كما أمدهم بالعوْن والرعاية بعض أمراء المانشو . ثم ما لبثت الإمبراطورة ذاتها أن مالت إليهم وساعدتهم ..لكنهم فى نظر الدخلاء الأجانب كانوا : حمقى ، إرهابيين ، متعصبين ، ناقمين ، حاقدين ، يريدون السلب والنهب ، فى حين أن الذين لم يمدوا إليهم عوناً أو نُصرة (من الصينيين) كانوا يعترفون بأنهم «أصحاب حركة ، هى فى جوهرها قومية وطنية خالصة، تستحق التقدير ، باعتبارها انفجاراً وطنيًّا أصيلاً » .

طالبت الدول الأجنبية بقمع تلك الحركة ، والقضاء عليها ، واقترحت صدور مرسوم إمبراطورى ينص صراحة على « أن الانتماء إلى أى جماعة من تلك الجماعات ، أو إيواء فرد من أفرادها ، يُعد جناية يعاقب علها القانون الصينى». وبلغ التمادى بتلك الدول الأجنبية الاستعمارية الدخيلة أن طلبت من الحكومة الصينية الموافقة على اعتبار أى مقاومة من جانب الشعب الصينى لأعمال وتصرفات الأجانب والمبشرين ـ مهما كانت ـ جريمة تستحق الجزاء الرادع .. إلا أن هذه المطالب الخرقاء زادت أعضاء «البوكسرز» إيماناً بصدق وعدالة مقاصدهم ، وثباتاً وقوة فى الكفاح والمقاومة . وانكشف للصينيين جميعاً الوجه الحقيقى لأعداء الصين

ومخربيها ، والطامعين فى أراضيها ، ثم سلك الدخلاء الأجانب مسلكاً أكثر تجاوزاً ، وأكبر شططاً ، إذ رتبوا مظاهرات بحرية بسفنهم وزوارقهم المسلحة، إنذاراً وتهديداً وتخويفاً ، ولكنها أحدثت العكس فى نفوس الشعب الصينى العريق : زادته سخطاً وكراهية وتصميمًا على النضال . ووقعت مصادمات ومعارك ومواجهات ، سالت فيها دماء من هنا ، ودماء من هناك ، وانطلق جنود الدول المتضامنة ينهبون نهباً مطلقاً من كل قيد . وشهد سفير إيطالى سابق ـ عاصر تلك الأحداث ـ فقال: « إن ما قاساه سكان العاصمة بيكين من الأهوال وبشاعة الانتقام على أيدى الأجانب ، يفوق التصور والتوقع ». وفرضوا على الصين تعويضات ضخمة ، على أقساط تنتهى عام ١٩٤٠ ـ ! ـ واحتفظوا لأنفسهم بحى السفارات ، لا يسكنه غيرهم ، ووضعوا له شرطة حراسة خاصة من رجالهم ، مع حق نشر الجنود الأجانب فى مناطق أخرى بالعاصمة ، وحماية المبشرين ، وحظر استيراد الصين للأسلحة والذخائر لمدة عامين ! .

أسرة صينية من مدينة شينجشو فى أوائل القرن العشرين.

ويوم أن أَحْدق الخطر بالعاصمة ـ بيكين ـ ارتكبت الإمبراطورة الوصية خطأ مشيناً ، إذ فرت هاربة ، متنكرة فى الخفاء ، ثم عادت بعد فترة للإقامة بالعاصمة ، هزيلة سقيمة ، مكتئبة مكروهة .. فقد أذعنت للأجانب ، وتوددت إلى نساء الديبلوماسيين، واحتفت ورحَّبت باستقبال المبشرات والمبشرين . لقد وهَنت وأُهينت، وخبا بريقها ، وتهرأت سلطتها ، وأراحتها الحروب والنزاعات اليابانية ـ الروسية قليلاً من ضغوط المشاكل والهموم ، إلى أن ماتت عام ١٩٠٨ ، قبل أن تَشهد زوال حكم أسرة المانشو على يد الثوار الوطنيين الصينيين ، بعد سنوات ثلاث فقط من وفاتها .

بدأ الظلام الكئيب الكثيف ينزاح عن سماء الصين ، ويُخلى مكانه لطلوع فجر جديد، يحمل معه بشائر روح جديدة ، وعزائم سديدة ، وعقول رشيدة، تمحِّص الماضى القريب ، وتتعلم من أخطائه ، وترنو إلى المستقبل الوليد ، وتتفهم مطالبه وغاياته . وكلها تلتقى عند تحقيق ما كان لابد أن يتحقق : وطن عزيز كريم لكل أبنائه ، وحرية شعب آن له أن يطرد كل أعدائه، والإطاحة بحكم إمبراطورى أدمن الفساد والاستغراق فى ملذاته .

إن مشكاة الضوء فى بصيرة الأمة الواعية العريقة لا تنطفىء ، وجَذْوة الحماس فى ضمير الشعب الأبىِّ الوفِّ لا تزول . ولقد وجد الصينيون لديهم من الشجاعة والجرأة ما دفعهم إلى قطع التعامل مع الأمريكيين (١٩٠٥) ، احتجاجاً على سوء معاملة إخوانهم الصينيين داخل الولايات المتحدة ، ثم

فعلوا الشيء نفسه (١٩٠٨) مع اليابان، تعبيراً عن الاستياء الوطني والغضب. وفي خطوة عملية رشيدة سديدة، بعثوا بأعداد كبيرة من الشباب الوطني للدراسة بالخارج، واكتساب الخبرات والمعارف، والتقاط طرائق التكنولوجيات الجديدة، فرجعوا إلى وطنهم معلِّمين مدرِّبين، ومطوِّرين مصلحين.. فلما انتصرت اليابان على روسيا انتصاراً حاسماً، كان ذلك إيذاناً بغروب شمس الرجل الأبيض الأوروبي الثقيل الدخيل، من الصين، ثم من آسيا فيما سوف يأتي من سنين...

فهل تُلام الصين على كراهية الاستعمار، ومَقْت أساليبه وسياساته ومؤامراته وكل أشكال خداعاته؟، أم تلام على شكوكها فيه، وحَذَرها منه، وحيطتها تجاهه؟.. هذا ما حدث في أول القرن العشرين.. ولسوف يشهد ويسجل لها الكثير، وسنرى من أمرها عجباً!.

من روسيا القيصرية إلى نشأة البولشفية

دخلت روسيا القرن العشرين وهي تحت حكم أسرة رومانوف، ممثَّلة في آخر قياصرتها: نيقولا الثاني، الذي تولى منصبه عام ١٨٩٠. في السنوات الأولى من هذا القرن شهدت روسيا محاولات للإصلاح، ولكن مع الضغط والإكراه والقهر. وأيقن القيصر أن بقاء النظام الحاكم مرهون ببناء وإظهار قوة الدولة.

كان الإقطاع ـ بنظامه، وامتيازاته، ومساوئه ـ قد تلاشى تقريباً منذ عام ١٨٦٠، وجرى تحديث للجيش، وتسارعت خطوات التصنيع.. فلما حل عام ١٩١٣، كانت روسيا في المرتبة الخامسة بين الدول الصناعية الكبرى.

هذه التغيرات السريعة أحدثت ـ بالضرورة ـ تحولات كبيرة في المجتمع. مثلا: هَجَرت أعداد كبيرة من سكان الريف والقرى أراضيها، واتجهت نحو المدن، فطغت على حياة القوى العاملة المقيمة فيها، وأشاعت تياراً من الاضطرابات والأزمات في السكن، وفي مواد الطعام؛ فارتبكت القيادات السياسية والتنفيذية.

لقد أفرز التقدم والتحديث طبقة جديدة من الموظفين، والأطباء والمعلمين

والمحامين ، والفنيين ، ظهر من بينهم دعـاة ومناصرون للإصلاح ، يتطلعون إلى جعل روسيـا دولة حديثـة متطورة .وهنا وقع التصادم وانشق الصـدْع: بين السلطة القيصرية الحاكمـة التى اتسمت بالتراخى والمظهرية فى إصـلاح الفسـاد والتطوير ، وبين الـوطنيين المخلصين المتعجلين ، الذين يزدادون كل يوم عـدداً ، ويريدون إصـلاحـاً حقيقيًّـا جـوهريًّا ، وتطويراً يحفظ حقـوق وكرامة الفرد ، ويرفع مستوى ومكانة الدولة والمجتمع .

استمـرت الدولة مَلَكية الحكم ، فـردية السلطة المطْلقة ، يدْعمهـا ساسـة يخضعون للجيش وللبيروقـراطية . وكـان نيقولا الثانى يـؤمن إيماناً راسخاً بأن سلطانه مستمـد من الله الـذى يمنحـه الرعـايةوالحماية .. فهـو يمارس سلطته كاملة بلا حدود ولا قيود .

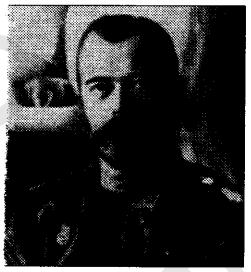
القيصر نيقولا الثانى

نتج عن هذا التناقض الصارخ بين النزعة القـديمة التى تتوهم أن سلطان الحاكم مقـــرون بالحق الإلهى ، وبين التغيرات الفكـرية والاجتماعيـــة والاقتصادية السريعة المتوالية ، أن تشـجعت المعارضـة السياسية ، وانطلقت، وانتشرت .. فلما انهزمت روسيـا فى حـربها مع اليـابان بالجبهـة الشرقيـة (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥)؛ اهتز عرش القيصر ، وتفجر غضب الفـلاحيـن البائسين والعمال الكـــادحين فى شكل ثورة ، أو أزمة ثائرة ؛ فاضطر القيصر عام ١٩٠٥ إلى إعلان السمـاح بإطلاق بعض الحريـات المدنيـة ، والموافقـة على تكويـن مجلس تشريعى وطنى منتخب .. فلما هدأت ثائـرة الشعب ، تراجعت السلطة الحاكمة فى تنفيذ قراراتها المهدئة ، وأدخلتْ عليها تعديلات جوهرية : حـريـات محدودة مبتَسَرة ، ومجلس وطنى لا حـوْل له ولا قـــوة . وتلاشت حقـوق الشعب الأساسيـة ، مثل : حـرية التعبير ، والاجتماع ، وإبداء الرأى المعارض . وعـاد القيصر بين عامى ١٩٠٥ ـ ١٩١٤ سيرته الأولى ، يحكم بلا منازع ، ويستبـد بسلطته القـاهرة المطْلقة ، وتعـرض الوطنيون المخلصـون الغاضبون للاعتقال ، والسجن ، والنفى، والقتل .

بوادر الدعوة إلى الثورة أمام قصر القيصر

فى عـــام ١٩١٤ لاحت بوادر التصـــادم الكبير الحاد بين الفكر القـــديم ، والواقع الملتهب الجديد ، حيث تجمعت قوى التيـارات المحافظة ، والتحررية والاشـتراكيـة ، تطالب جميعها ـ وتتـوقع ـ تغييرات سياسيـة جذرية . وعـلا زئير المعـارضة ، وزادت قـوة وجرأة . وفى غمـرة اضطرابات شاملة داميـة ، وقَعـــت فى بطرسبورج عام ١٩١٤ ، اتخذ القيصر قراراً بإعلان الحرب على النمسا وألمانيا . وهنا تبدأ مرحلة ثورية جديدة حاسمة.

دخلت روسيا القيصرية الحرب العظمى (العالمية الأولى) متأففة مترددة.. فجيشها فى عام ١٩١٤ لم يكن أبداً فى حالة تسمح له بمواجهة جيش الإمبراطورية الألمانية . وحتى بعض الحماس الذى ساد الجيش الروسى فى بداية الحرب ، تبخر سريعاً بعد الهزائم المبكرة المتوالية . وفى الدوما (البرلمان الروسى) اجترأ النواب البلاشفة الخمسة على معارضة اشتراك بلادهم فى الحرب ، وإلى جانب الحلفاء ؛فكان مصيرهم النفى إلى سيبيريا . وهناك فكر زعيمهم (فلاديمير إليريش لنين) فى أن هزيمة الجيش الإمبراطورى الروسى هى مفتاح الطريق إلى تحقيق أهداف الثورة داخل

موسكو فى أوائل القرن ٢٠ وضحايا الثوار أمام القصر الامبراطورى

روسيا ، وأنه كلما زاد العداء بين الشعب (ومعظمه من الفلاحين) وبين السلطة الحاكمة ؛ ضعفت تلك السلطة ، وتضعضعت ، وتهيأ النجاح للثورة .

انتقلت السلطة إلى حكومة مؤقتة ، إلى أن ينعقد برلمان دستورى ، يضع دستوراً جديداً ، ويختار حكومة رسمية دائمة . فَشَلت تلك الحكومة المؤقتة ـ وكذلك ثلاث حكومات متتالية ـ فى إنهاء الحرب . وعَلا ضجيج الشعب الجائع، وصراخ الجنود الفقراء من المؤونة والسلاح ، وبدَا الذعر على الأريستوقراطية الواجفة . ووجدت السلطة الحاكمة نفسها فى مأزق وحيرة: فلو أن الحكومة وافقت على انسحاب روسيا من الحرب ، فإن الجنود العائدين (وغالبيتهم فلاحون فى ملابس عسكرية) سوف يطالبون بأرضٍ يتملكونها ، كما وُعدوا بها من قبل ، لإغرائهم بالاشتراك فى الجيش . ولو أن الحكومة أعلنت أنها تضمن لهم تنفيذ ذلك الوعد والحرب قائمة ، فإنهم سيتركون مواقعهم للحصول على نصيبهم من الأراضى . وكان على الحكومة أيضاً أن تدخل فى نزاع ـ وأحياناً فى صراع ـ مع المؤسسات الديموقراطية القائمة ، وهى السوفييت (ومعناها : المجالس) التى كان أشهرها وأقواها فى بتروجراد وموسكو . وبالرغم من مساندة الاشتراكيين المعتدلين (وهم

فلاديمير لنين

المانشفيك ، أى : أغلبية الشعب) والاشتراكيين الثوريين ، للحكومة المؤقتة ، إلا أنها واجهت معارضة شديدة عنيدة من جانب لنين ومَن معه من البلاشفة (أى الأقلية) .

فى يوليو ١٩١٤ حاول العمال والجنود الاستيلاء على مراكز السلطة فى بتروجراد . ولمّا اتُّهم لنين بالحصول على أموال من ألمانيا ، فر هارباً إلى فنلندا ، خاصة بعد فشل موجات الإضرابات والعنف التى حرَّض على إشعالها . وفى ٢٢ يوليو تولى ألكسندر كيرنْسكى رئاسة الحكومة . وحاول إقرار النظام فى العاصمة ، لكن ليون تروتْسكى ـ أحد الشخصيات البارزة والقائدة فى سوفييت (مجلس) بتروجراد ـ نظَّم فرقاً مسلحة تحت ستار سلطة القيادة المحلية ، قاوم بها محاولات كيرنسكى الإصلاحية والتنظيمية .. فلما علم لنين بذلك وهو فى مختبئه بفنلندا ، عاد سرًّا إلى روسيا . وفى ٧ أكتوبر (٢٥ نوفمبر بتقويم روسيا القديم) استطاع مع رفاقه البلاشفة أن يطيحوا بحكومة كيرنسكى .

كان الكثيرون من العمال الذين عضَّدوا الثورة يعتقدون أن روسيا سوف تحكم ديمقراطياً بواسطة السوفييت (أى المجالس) المحلية ، لكن

* ألكسندر كيرنسكى (توفى ١٩٧٠) . كان له دور كبير فى تشكيل سياسة الحكومة المؤقتة عام ١٩١٧ . استطاع بحكمة أن يحتوى ثورة الجيش ، لكنه فشل فى احتواء تمرد لنين .

* القيصر نيقولا الثانى مع أسرته الذى تنازل عن العرش فى ١٥ مارس ١٩١٧ ، فتكونت بعده أول حكومة مؤقتة تولت السلطة . فى عام ١٩١٨ أعدمت الثورة الشيوعية القيصر وأسرته كلها واحدًا واحدًا أمام بعضهم البعض ، بعد اعتقالهم المهين فترة طويلة .

* دفعت روسيا ثمنًا فادحًا فى حرب طويلة ، لم تكن مستعدة لها ، وذلك لتخلفها تكنولوجيًا عن ألمانيا . وحتى منتصف عام ١٩١٧ ، كانت روسيا قد حركت ١٥ مليونًا من جنودها ومواطنيها ، قتل منهم ١,٧ فى المعارك ، جرح منهم ٤,٩ مليون ، وفقد وأسر منهم ٢,٨ ، رغم أن روسيا كانت أقوى من تركيا وبلغاريا والنمسا .

الأمور سارت على غير ذلك .. ثم واجه لنين ، هو وأتباعه البلاشفة (كانوا أقل من ثلاثمائة ألف فى روسيا كلها) معارضة شديدة من الأحزاب ، ومن المنظمات الشعبية . كان تأثيره السياسى فى البداية ضعيفاً . وبعد توقيع معاهدة برسْت ـ ليتوفسك فى مارس ١٩١٨ ، التى أنهت الحرب الروسية مع ألمانيا ، اشتعلت فى صيف ذلك العام الحرب الأهلية داخل روسيا : بين البلاشفة « الحُمر » ، والمناوئين للشيوعية « البيض » . وفى الخريف ، تدخل الحلفاء إلى جانب «البيض» لمساعدتهم فى تكوين جبهة ضد الشيوعيين الحُمر فى المناطق الشرقية من ساحات القتال السابقة . استمر الصراع فى

روسيا حتى نهاية عـام ١٩٢٠ بانتصار فرق المسلحين من الحزب الشيوعى . وفى غمرة هذا الصراع قتل الشيوعيون القيصر وأسرته رمياً بالرصاص فى بدروم البيت الذى اعتُقلوا فيه .

استطاع الشيوعيون استمالة الكثيرين من العمال والفلاحين بوعود براقة، حتى يقفوا إلى جانبهم . كما تمكن تروتْسكى بكفاءة عالية وذكاء من أن يفرض على البلاد السيطرة العسكرية السوفيتية . وابتدع لنين سلطة قوية جديدة لحكم البلاد : الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى . وبينما حظى لنين بمساندة من «التشيكا » ، أى : البوليس السرى، وأيضاً من قيادات بالجيش طامعة فى نصيب من الغنائم ، إلا أن المجالس (السوفييت) المحلية أدركت بوادر خنق الديموقراطية ، فوقفت موقف المعارضة .. فكانت صدامات دموية مدمرة ، وإعدام بالجملة ؛ مما أثر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بشكل خطير ـ إلى جانب خسائر الحرب العظمى ـ فاضطر لنين فى عام ١٩٢١ إلى أن يستسلم لتطبيق نظام اقتصادى مؤقت ، يسمح بالمِلْكية الفردية ، ويخفف من غلْواء الاشتراكية والضغوط الشيوعية . وإذ استفاد من هذا التيسير غالبية الفلاحين (وهم ٨٠٪ من السكان) ، فقد أخذ الاقتصاد الروسى ينتعش رويداً رويداً .. ولكن إلى حين .

كان فرح الشيوعيين بنجاح ثورتهم أقوى من جزعهم على ضياع أجزاء كبيرة وثرية من الإمبراطورية : فنلندا ، وإستونيا ، ولاتفيا ، وليتوانيا ، وبولندا ، وأجزاء من أوكرانيا وبيصاربيا .

ثم جاءت مشكلة « الخلافة » : مَن يخلف لنين بعد وفاته عام ١٩٢٤ ؟ . إن لنين نفسه كان يتوقع أن يكون تروتْسكى ـ الأقـرب إلـى نفسه ، وأكثر

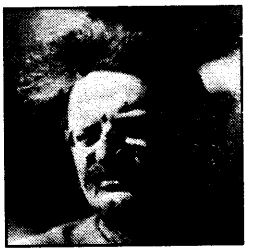

* كان تروتسكى ذكيًا منظمًا ، إلا أنه غير حاذق سياسيا . كان ناقدًا ومتحدثًا لبقًا ، لكنه لم يفطن إلى تآمـر ستالـين ضده، حتى اضطره إلى الهرب منفيًا ، ثـم دبـر لقتله ـ بعد أن قتل ابنه ـ ونجح فى اغتياله بالمكسيك عام ١٩٤٠ .

* اجتاحت المجاعة مناطق الفولجا عامى ٢١ ـ ١٩٢٢ ، وراح ضحيتها نحو خمسة ملايين ، هلكوا جوعًا ، ودمرت اقتصاد روسيا ، مما أجبر لنين على تعديل نظامه ، والسماح بالمِلْكية الخاصة .

الرسم الشيوعى هنا يبين العم سام الأمريكى ، وهو يطْلق كلابه من زعماء البيض المناهضين للشيوعيين .

لنين يخطب فى الجموع ويستثيرها

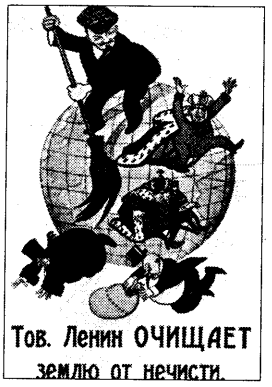

* « الرفيق لنين يكنس العالم » رسم كاريكاتورى استخدمه الشيوعيون السوفيت فى بداية حملاتهم الدعائية ، وفيه وعد بتطهير العالم من الظلم والاستغلال والسيطرة .

الجميع نشاطاً ومرونة ـ هو خليفته فى القيادة والزعامة ، إلا أن رجلاً يدعى جوزيف ستالين ـ على قدْر ضئيل من الثقافة والتعليم ـ جاء من أعماق الريف ، لم يَدَع لتروتسكى الفرصة .. فيتولى هو زمام السلطة ، ثم يدخل بالاتحاد السوفيتى ـ وبالعالم معه ـ فى منعطف جديد مثير ، تساقطت فيه الضحايا ـ ومن بينهم تروتسكى ذاته ـ بالآلاف .. بالملايين .. بعشرات الملايين ، ولو أنه قفز ببلاده ـ بعد نحو ربع قرن ـ إلى مرتبة الدولة العظمى عسكريًّا ، فى المرتبة الثانية عالميًّا بعد الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى مواجهتها المتحدية . (وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فى موضعه من الحرب العالمية الأولى ، وما تلاها من أحداث على المستوى العالمى) .

الاقتصاد العالمى

فى عام ١٩٠٠ كانت أفكار كارل ماركس ، ومن سلك سبيله من الاقتصاديين الاشتراكيين، تنتشر وتصطرع ، فتثير ثائرة الكتل العمالية ، فتُضرب عن العمل ، وتخرج إلى الشوارع فى مظاهرات صاخبة صارخة ، تتسم بالعنف، وتدعو إلى ثورة عالمية عمالية . ولاح فى الأفق ، وتطرَّق إلى الأذهان أن النظم القديمة على وشك الانهيار ، أو أنها ـ على الأقل ـ تهتز بقوة، ولابد من وقوع تغييرات جذرية طوْعاً أو كَرْهاً .

ومما لا شك فيه ، ولا كثير جدال حوله ، أن كارل ماركس وأضرابه كانوا مجرد « باعث » أو « مثير » أو « محرِّض » . أما الأصل أو الأساس الكامن وراء كل ما حدث، وما سوف يحدث ، فهو « التصنيع » ذاته ، الذى نما ، وكبر ، واتسع ، وتضخم ، فحمل بذور « أمراضه » أو مشكلاته معه ، دون أن يدرى .

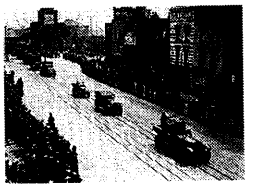

تسابقت دول أوروبا (خاصة المانيا وبريطانيا) فى التكنولوجيا والتصنيع مع التركيز على الصناعات الحربية .

إن العاقل الحصيف بعيد النظر ـ وهكذا يجب أن يكون القادة والمفكرون والسياسيون والزعماء ـ يستبق الحاضر إلى مشارف المستقبل ، ويعيش اليوم والغد القريب والبعيد معاً ، ثم يقدِّر النتائج ، وما ترتب عليها ، وما سوف تؤدى إليه أو تتصادم به . وفوق ذلك .. يعرف جيداً الحدود والقيود : أين ، وكيف ، ومتى يقف ، ولماذا ؟ ، كما يدرك ـ قبل غيره ـ من أين تهب العواصف ، وتنبثق الكوارث .

دخل التصنيع ـ أو إن شئت : حجم ومستوى الصناعة ـ عاملاً رئيسياً فى تقدير موازين القوَى ، إلى جانب العوامل الأخرى (١).وها هى ألمانيا تقفز فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فتدخل القرن العشرين كأكبر وأقوى دولة صناعية وتكنولوجية فى أوروبا ، بينما ممتلكاتها خارج حدودها فى المستعمرات قليلة محدودة ، لا « تتناسب » ـ فى تقديرها ـ مع قوتها الاقتصادية والصناعية ، ولا مع مستواها بين إمبراطوريات ودول القوَى الكبرى (خاصة بعد اكتشاف بريطانيا كميات كبيرة من الذهب فى مناجم الترانسفال عقب حرب البوير). إن ألمانيا تريد التوسع .. فكيف إذن ؟ ، وكيف كانت نظرة القوىَ الأخرى إليها وإلى تطلعاتها ؟. من هنا بدأت الأزمات تنمو وتتعقد، ثم تنجرف نحو التصادم والعراك .

فى عام ١٩٠٠ كانت أوروبا تنتج ١٧ مليون طن من الصلب . ثلثا تلك الكمية تنتجه دولتان فقط : ألمانيا ، وبريطانيا . وكانت بريطانيا تستخرج من الفحم ، وتُنتج من النسيج كميات تفوق كل ما تستخرجه منه وتنتجه أوروبا جميعها .

كان معظم الدول الأوروبية ـ مثل غالبية دول العالم ـ يعتمد فى

---

(١) نقصد بالتصنيع ـ ليس الإنتاج والتسويق فقط ـ وإنما كل ما يرتبط بذلك ، ويؤثر فيه وعليه من قريب أو بعيد ، كالتعليم ، والبحث العلمى ، والابتكار ، والتدريب ، ونظم العمل ، والرعاية الاجتماعية ، واحتياطات الأمن ، والاستثمار والتمويل ، وكمية الإنتاج ومستواه وتنوعه مدنياً وحربياً ، وقطاعاته العامة والخاصة والمشتركة ، والتوزيع ، والنقل ، والإدارة ، وحماية الإنتاج ، والجمارك ، والضرائب . . . إلخ .

اقتصادياته على الزراعة وتوابعها . أما الصناعة ـ خارج أوروبا ـ فكانت محدودة ، ضعيفة المستوى ، فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث الوفرة الهائلة من الأراضى والمواد الخام ، والأيدى العاملة المدرَّبة ، والتفتح العلمى والتكنولوجى، وحرية العمل والتنقل والاختيار ،، وإتاحة الفرص أمام الجميع، ولكل قادر على الكفاح والنجاح والارتقاء والثراء ، وبذلك صارت الولايات المتحدة ـ بعد أربعين سنة فقط من الحرب الأهلية ـ فى مركز الصدارة ، وريادة الدول الصناعية الإنتاجية الكبرى .

أسرعت دول كثيرة ـ عبر العالم ـ تحاول اللحاق بركب التقدم العلمى والتكنولوجى والصناعى ، وتجتهد فى تطوير اقتصادها ، ومواكبة التغيرات الاجتماعية والمدنية الجديدة .. لكنها كانت غالباً تعتمد على الاستثمارات الأوروبية ، وعلى التكنولوجيات الأوروبية والأمريكية .. فكانت فائدة مزدوجة بين الطرفين : انتفاع الدول الصناعية الكبرى بالمواد الخام والأيدى العاملة رخيصة الثمن ، وتسويق منتجاتها الصناعية ، وانتفاع الدول الأخرى بالتمويل وبالخبرات الصناعية والإنتاجية ، وأساليب العمل والتسويق (وإن كانت الدول الأضعف لم تسلم ـ كثيرا ـ من حيف واستغلال الدول الأقوى ، ومن دهاء وغلواء كبار المستثمرين الأجانب) ؛ فنشط تصدير الفاكهة واللحوم المعلَّبة من أمريكا اللاتينية ، والكاكاو من أفريقيا ، واستخرجت بريطانيا من مناجم الترانسفال وحدها عام ١٩٠٠ أكثر من مائة ألف طن ذهب !، ومئات الآلاف من أطنان الزنك من الملايو ، والنحاس من كندا ، وتلك مجرد أمثلة .. أما بقية دول وشعوب العالم ـ حتى الدول التعيسة التى استمرت خيراتها ومعادنها تُستنزف ـ فقد ظلت حبيسة النظم التقليدية فى الزراعة والصناعات المحلية البسيطة .

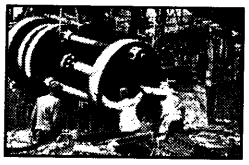

حاولت روسيا فى بدايات القرن ٢٠ اللحاق بالصناعات الثقيلة والحربية الألمانية .

وفى عام ١٩٠٠ ، كان لابد من تطوير وسائل النقل ، وتسويق التجارة العالمية ، ونظم النقد والتعامل والتأمين ، بما يتسق مع التشابكات العالمية فى الحركة ، والتبادل ، والاتصال ، والمواصلات ، وحجم التجارة ، وطرقها البرية والبحرية . وهذه كلها بدورها فتحت باباً جديداً ـ بل أبواباً واسعة ـ لمجال العمل ، والإنتاج ، والاستثمار ، والربح، كان ضيقاً محدوداً ، وللخاصة : السياحة .

احتكرت بريطانيا وحدها نصف التجارة العالمية بأسطولها البحرى المتسيد فى البحار والمحيطات . كما أن مجموع استثماراتها الخارجية وحدها

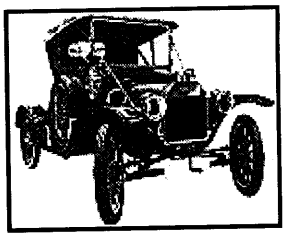

فاق مجموع استثمارات كل دول العالم مجتمعة . وفى عام ١٩٠٠ ، زاد حجم التجارة العالمية ثلاثة أضعاف ما كان عليه فى السنوات القليلة السابقة ، وبالتالى زاد العائد منها، وتضخمت أرباح المستثمرين (الدول ، والأفراد ، والشركات) ، ونالت كل من : الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا النصيب الأكبر من ذلك ، ولم يتحسن كثيراً ـ أو بالقدر نفسه ـ مستوى الدخل والحياة الاجتماعية الشعبية داخل هاتين الدولتين الرابحتين ، لأن معظم الثروة كان مُرَكَّزًا فى أيدى أفراد ، أو أُسر قليلة محدودة العدد . وظل الملايين فى أمريكا وأوروبا ودول التخلف الصناعى يعانون مرارة الحرمان ، وبؤس الحاجة ، والفقر ، والمرض .

وحين نشير إلى التطور الاقتصادى وآثاره ، لا يجب أن نغفل عن الإشادة ـ المكثفة ـ بدور العلم والتكنولوجيا فى هذا المجال ، لأنهما الأساس والمقياس، وهما حقًّا ركيزة الإنجاز .. ففى القرن التاسع عشر كانت دعائم الثورة الصناعية قائمة على الحديد ، والفحم ، والسكك الحديدية . وفى عام ١٩٠٠ ، أقبلت موجات إثر موجات من الابتكارات والاكتشافات : فى مقدمتها المستحدثات الكيميائية ، والكهربائية ، والمحركات التى تعمل بالاحتراق . وفى أوائل القرن العشرين ، ظهرت السيارات الجديدة (بمحركات احتراق داخلى) . وفى عام ١٩٠٣ طارت ـ بنجاح ـ أول طائرة ، وفى عام ١٩٠٢ عزل العالم الفيزيائى البريطانى جوزيف طومسون الإلكترون .وقبل ذلك بعامين، وضع العالم الألمانى ماكس بلانك أساس نظرية الكَم(quantum) . وفى

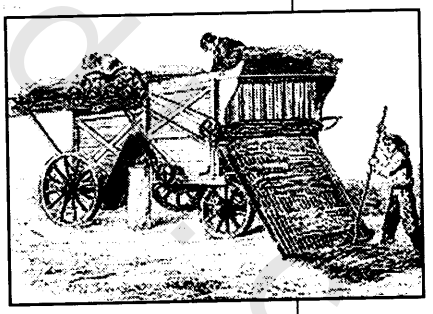

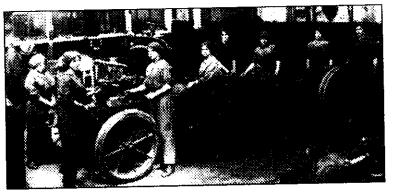

عام ١٩١٥ قدم ألبرت آينشتين التصور النهائى لنظريته النسبية (التى بدأها عام ١٩٠٥) ... هذه كلها ـ وغيرها ـ كانت المقدمات الأولى لطلائع ابتكارات واكتشافات وإنجازات هائلة متنوعة ، طبعت العالم كله ـ والقرن بعد ذلك ـ بطابعها ، فكان : قرن الذرَّة ، وقرن الفضاء ، وقرن الأقمار الصناعية وشبكات الاتصال والمعلومات ، وقرن الكمبيوتر ، والروبوط

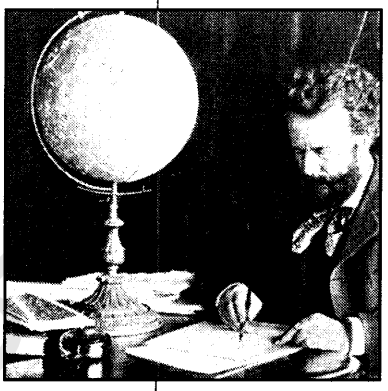

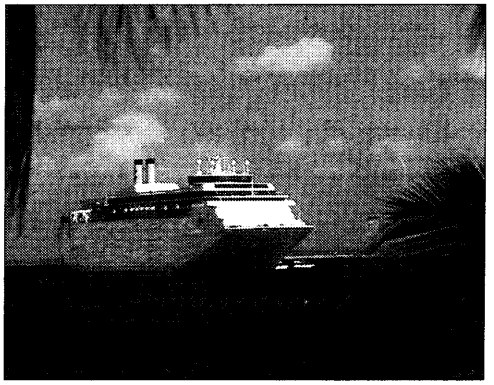

(الإنسان الآلى) ، وقرن السرعة ، وقرن أطفال الأنابيب ، وقرن الاستنساخ ، وقرن قطع الغيار البشرية ، وقرن الإذاعة والسينما والتليفزيون ، وقرن الأسلحة والحروب الحاصدة لأرواح الملايين، عشرات الملايين ، والثروات المتنامية بآلاف الملايين ... وكل هذا صحيح حقاً .. ويكفى هنا ـ إلى أن نتناوله بالتفصيل ـ التنويه والتلميح ، وقد تُغنى الإشارة عن التصريح .

بين حربين عالميتين

كل الظروف والمقدمات والصور المتباينة التى ذكرناها ، وحاولنا أن نوضح بها مطالع فجر القرن العشرين من مواقع مختلفة ، لكنها حيوية وضرورية بالنسبة للأفراد وللأمم وللمؤسسات والدول ، هى نفسها ـ تلك الظروف والمقدمات والصور ـ التى سخَّرتها الأقدار لكى تشق وتمهد مسارات الوقائع والصنائع ، والإنجازات والتجهيزات ، التى صاغ بها الناس حياتهم ؛ فسعدوا وأسعدوا ، أو شَقُوا وأَشْقوا ، وهو ما سوف نعرض له تفصيلاً فى الأجزاء التالية بإذن الله ، ونحن نتأمل معاً حصاد قرن وفير نضير ، فيه الغث ، وفيه الثمين .

وحسبنا الآن ، فى إشارات موجزة ، أن نكوِّن فى الذهن ـ لا فى الخيال ـ المنظر العام الجامع الشامل (أى البانورامى) ، الذى يصلح أن يوضع على «غلاف » سجل هذا القرن .

ما إن طلع الفجر ، وأشرقت ساطعة شمس القرن الوليد ، حتى أحس الناس برياح ساخنة تهب من داخل أوروبا ، لم تلبث أن تحولت إلى عواصف ملتهبة وأعاصير، تُهلك الحرث والنسل ، وتَسْرى حمقاء على مهل . وعندما انتهت الحرب العظمى (العالمية الأولى) فى نوفمبر ١٩١٩ ، كانت خسائرها ونفقاتها قد تجاوزت كل التوقعات والتقديرات السابقة عليها قبل أربع سنوات . حصدت المعارك أرواح ثمانية ملايين ونصف المليون من الجنود ، وخلَّفت وراءها واحداً وعشرين مليوناً آخرين ، جرحى وذوى عاهات ومصابين ، من تفجير القنابل والألغام . واكتشفت الحكومات المتحاربة أن حماقاتها العسكرية كلفتها أكثر من ١٨٦ بليون (مليار) دولار ، فى ذلك الوقت الذى أمدت الولايات المتحدة فيه أوروبا (بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وبلجيكا معاً) بمبلغ ١٠ (عشرة) بلايين دولار كقروض ومساعدات عقب الحرب مباشرة ، لكى تنهض تلك الدول صناعيًّا من جديد ، وتتغلب على المشكلات التى ترتبت على خسائر الحرب (١).

بلغَت اقتصاديات الدول التى اشتركت فى هذه الحرب درجة الإفلاس ، بعد أن عَمَدت حكوماتها إلى طبع أوراق نقدية بكميات ضخمة بلا رصيد ، لكى تلبى متطلبات الحرب . وتحمَّل المواطنون المدنيون قدراً كبيراً من أعباء الكارثة ماديًّا بانهيار قيمة العملة ، واجتماعيًّا بخلخلة الروابط والقيم ، وغذائيًّا بالمجاعة، وصحيًّا بالأمراض ، وكل النتائج المباشرة وغير المباشرة للحرب طويلة المدى ، فضلاً عن الملايين الذين راحو ضحية الحرب . ومن تلك النتائج المباشرة :خروج المرأة لساعات طويلة (أكثر من ١٠ ساعات فى اليوم) للعمل بالمصانع والورشات والإنتاج الحربى ، وفى المزارع ، بدلاً من الرجال الذين انخرطوا فى صفوف الجيوش .. فمثلا : فى بريطانيا ـ عام ١٩١٨ ـ كانت نسبة النسوة اللاتى يعملن فى مجال الصناعة ٤٠٪ من القوة العاملة ، وأجورهن نصف أجور الرجال عن العمل ذاته .

إنها نتائج مروعة ، لم يسبق لها مثيل ،حيث لم تكن لدى الدول خبرة سابقة بتحريك ونقل وتموين هذه الأعداد الضخمة من الجنود والفِرق ،

---

(١) إن خسائر الحرب التى قدرت ماديا بـ ١٨٦ مليار دولار أمريكى تعتبر ـ بقيمة العملة حينذاك ـ ضخمة وباهظة. وللمقارنة : فإن الولايات المتحدة الأمريكية سبق أن اشترت شبه جزيرة ألاسكا من روسيا بسبعة ملايين ومائتى ألف دولار فقط ، مع العلم بأن ألاسكا مساحتها ١٤٧٧٢٦٧ كم٢ ، وتعادل خُمْس مساحة الولايات المتحدة كلها ، وبها بترول ، وكنوز معدنية ، وثروات برية وبحرية لاتحصَى ! .

وتزويدها بالأسلحة والمعدات . ومع تقدم الحرب ، فَرَضَت المؤسسات العسكرية على حكوماتها أن تُخضع اقتصاديات الدولة كلها ـ كاملة ـ وإنتاجها الزراعى والصناعى لخدمة الجيوش . وُزِّعت الأطعمة والملابس والمواد الضرورية كالوقود بالبطاقات ، وبنِسب قليلة محدودة .. فلما وضعت الحرب أوزارها ، كان قد تم تحريك ٦٥ مليون شخص ، معظمهم من الفلاحين وصغار العمال والموظفين . ونتيجة لذلك .. هبط الإنتاج الزراعى .. ففى ألمانيا مثلا: بلغ إنتاج الحبوب عام ١٩١٣ نحو ثلاثين مليون طن ، بينما لم يتجاوز إنتاجها عام ١٩١٧ نصف هذه الكمية .

وصف البعض من العسكريين هذه الحرب بأنها « حرب شاملة » . إنها نوع جديد من الحروب بين تجمعات وطنية ، وليست فقط بين الجنود . كما أنها أخضعت كل الأنشطة العلمية والاقتصادية ومصادر الثروة ـ فى كل دولة ـ للأغراض الحربية واحتياجاتها . وهذه الاحتياجات ذاتها دفعت بالحكومات ـ حتى الديموقراطية منها ـ إلى تغيير نمط الحياة المدنية بها ، واتخاذ تدابير لم تكن معهودة من قبل ، ولا مستساغة فى أوقات السلم ،

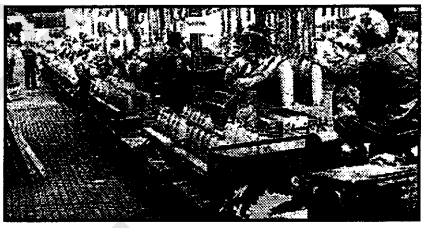

ولا تلائم إلا حكم القهر والاستبداد . واستُحدثت أساليب الدعاية، والدعاية المضادة ، والتوعية ، وإثارة الوعى والحماس الوطنى بشكل غير مسبوق ، لكى يتقبل المواطنون ظروف الحرب ، ولا يخبو حماسهم نحوها . وخضع العمال والموظفون لقوانين الأحكام العرفية الصارمة ، التى لا تقْبل المناقشة .

وعلى الجبهة الداخلية ، كانت المعيشة صعبة ، ومضْنية مُرّة : فساعات العمل أطول ، واحتياطات الأمان بالمصانع والورشات أقل ، والأجور والمكافآت والمرتبات انخفضت ، والحصول على الحصص الضئيلة من الأغذية والمواد الضرورية شاق وغير منتظم ، والإنتاج فى كل المواقع فى تناقص مستمر ... غير أن الحياة المعيشية فى بريطانيا كانت نسبيًّا أفضل من غيرها ، بينما كانت فى ألمانيا أسوأ كثيرا وأقسى ، تليها فى السوء والضنْك : النمسا ، وروسيا ، لانقطاعهما ـ بسبب الحرب ـ عن تجارة واقتصاديات العالم الخارجى . وزاد الطين بلَّة ـ كما فى المثل العربى ـ اجتماع الجوع والضعف والفقر مع انتشار نوع من وباء الأنفلونزا « الإسبانية » عام ١٩١٨ ، أودَى بحياة أكثر من ستة ملايين!.

كل هذه العوامل والظروف الضاغطة المهلكة ، أدت إلى انتشار القلق والاكتئاب والعراك والجرائم . وبعد فترة من الترقب فى بداية الحرب ، بدأت الأحزاب السياسية اليسارية فى إثارة الشكوك والنقد الصارخ ضد الحرب . وأخذ عمال وعاملات فى بعض المصانع يعبِّرون عن استيائهم بالإضراب المؤقت عن العمل . وسجَّلت الإحصائيات فى عام ١٩١٥ بالتحديد ٢٣٧٤حالة إضراب عن العمل داخل الدول المتحاربة ، اشترك فيها ١,١ ملايين من العمال (٢).وفى عام ١٩١٧ بلغ عدد الإضرابات ٢٣٦٩ ، اشترك فيها ٣,٤ ملايين . وفى عام ١٩١٨ طالب العمال المضْرِبون بشىء جديد ، إضافة إلى تحسين الظروف فى العمل والمعيشة :بالتغيير السياسى . لقد ساد شعور بالاستياء العام من السياسيين ورجال الأعمال وأصحاب المصانع ، بعد أن شاع أن هؤلاء جميعاً استفادوا من الحرب ، وعلى غرارهم جَمَع البعض ثروات كبيرة من تجارة السوق السوداء .

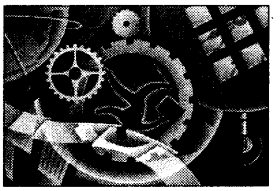

تطورت الصناعة وتنافست الدول فى الإنتاج ، وتسارع ذلك واستقر حتى نهاية القرن .. ولكن اين الإنسان الحائر اللاهث ، والإنسانية ، الضائعة ، بين ذلك كله ؟!.

وفى عام ١٩١٨ ، كان الذين لم يتأثروا بالحرب فئات ضئيلة : جيش النساء المتطوعات اللواتى تقدمْن للمساعدة والقيام بالخدمات الوطنية ، وجماعات الموظفين بالمكاتب الحكومية الذين تطوعوا لمساعدة الإدارات الرسمية فى الخدمة المدنية بالجبهةالداخلية ، وحتى فى جَمْع الخُردة

(٢) الدول التى اشتركت فى الحرب العالمية الأولى مباشرة هى :
دول القوى المركزية الأوربية : النمسا ـ المجر ، وألمانيا ، وبلغاريا ، وتركيا ضد الحلفاء ، وهم : بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، والصرب ، واليونان ، ورومانيا ، ومونتنجرو ، والبرتغال ، وإيطاليا ، واليابان ، والولايات المتحدة . وسوف نتناول تلك الحرب بالتفصيل فيما بعد .

للمصانع. وفى ألمانيا تحايلوا وابتكروا صناعات من مواد بديلة : أحذية من الكارتون (الورق) المقوَّى ، وورق من البطاطس ، وبُن من حشائش رخيصة ، وصابون من مواد كيميائية منظِّفة (ألمانيا أول من صنع مسحوق تنظيف) . وكان الحال سيئاً ومرتبكاً فى روسيا والنمسا ، حيث لم تستطيعا استحداث المواد البديلة (وهذا يشير إلى تفوق العقلية العلمية الألمانية المفكرة والمبتكرة) ، فارتبك توزيع المواد والأغذية الضرورية ، سواء فى داخل هاتين الدولتين ، أم على جبهات قتالهما ، مما كان له آثار مدمرة على الروح المعنوية فى الداخل وبين المقاتلين .

كانت الحرب العالمية الأولى تجربة لقياس مدى التحمل والصمود : فى التماسك الوطنى ، وفى الثبات الأخلاقى ، وفى المقدرة الاقتصادية . كما أنها أيضاً كانت اختباراً للنظام الأوروبى القديم وكفاءته ، ومدى الثقة بنفسه ، وقدرته على تدعيم السلام والتقدم ماديًّا ومعنويًّا . والنتيجة : أن صورة أوروبا تلطَّخت ـ وبلا عودة ـ من جراء أهوال الحرب وآثارها . وظهر للعالم أن « تقدم » أوروبا الحضارى المزعوم ، إنما كان قناعاً للبربرية ، وقشرة ذهبية هشة للوحشية. لقد أنْهت الحرب حلم « أَوْربة » العالم ، ومهدت الطريق لحرب جديدة ، شاركت فيها أوروبا نفسها بنصيب كبير (٣).

وسرعان ما أقبلت تلك الحرب .. أطلقوا عليها للترهيب والتبكيت والتهويل: العالمية الثانية ، وكأنما العالم ـ المتقدم المتحضر ـ لم يتعلم ، ولم يرتدع من حرب عالمية أولى سبقت ، ليعْقل ويرشد ، ويتجنب الوقوع فى مهوَى الهلاك والدمار ؛ فيحل مشكلاته بحكمة وهدوء ، ويجنح إلى السلامة والسلام ، فإذا به يشعلها حرباً ساحقة ماحقة ، بدأت بالأسلحة التقليدية ، ولكنها أشد فتكاً وتطوراً ، وانتهت بالصواريخ والقنابل الذرية ، التى ما زالت ـ وستظل ـ للبشرية جحيماً مسلَّطاً منذراً بالخطر ، لأنها ـ حقًّا ويقيناً ـ لا تُبقى ولا تَذَر .

إن كل الذين وُلدوا فى الأربعينيات من هذا القرن ، لم يدركوا عن قُرب أهوال الحرب العالمية الثانية . وربما سمعوا .. أو قرأوا .. أو شاهدوا بعض الأفلام السينمائية (المبهرة فنيًّا) ،التى تناولت شذرات عن هذه الحرب .. لكن ليس من رأى كمن سمع ! ، وليست الحرب ـ الحديثة خاصة ، مهما

---

(٣) Richard Overy - The Costs of War - 1996 .

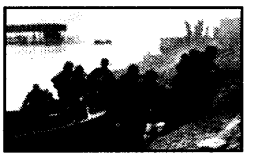

قوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية تعبر فى طريقها إلى ألمانيا النازية .

حاولت السينما وجهابذة الإخراج الفنى أن يصوروها ـ مجرد حكاية تُرْوَى ، أو سيناريو يُكتب ، أو حَبْكة تُصاغ . إن الحرب عذاب ، وخراب ، ودمار . وقد حذَّر الخالق سبحانه وتعالى منها (إلا للمضطر وعند الضرورة التى لا مَحيد عنها ، وبشروطها. وليس هنا مجال تفصيلها)، فأشار ـ جلَّت قدرته ـ إلى أنها بعض عقابه وانتقامه بما كَسبت أيدى الناس ، وعندما يزيد طغيانهم فى البلاد ، ويُكثرون فيها الفساد :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

سورة الأنعام / ٦٥

الجنود الروس كانوا أسبق فى دخول برلين عام ١٩٤٥ ورفعوا العلم السوفيتى فوق مقر الحكومة والبرلمان الألمانى إعلانا عن نهاية الحرب وتدمير ألمانيا .. وأوروبا !

ولكن .. متى كان الغُلاة والعُتاة والمتطرفون والطامعون والمتعصبون والمستعمرون (بكل أشكال الاستعمار المادى والحربى والثقافى والفكرى والاقتصادى ...) والنهابون والحمقى .. متى كان هؤلاء يفقهون ويَحْذَرون ويرتدعون ؟! .

كان لابد للحرب العالمية الثانية أن تنشب ، لأن تسوية الحرب الأولى لم تضْمن سلاماً ، ولم تتضمن ترضية ، لأنها لم « تعالج » أصل الداء ، وبالتالى خاب «تشخيصها » للمرض ، واختيارها للدواء .. فهى إذن امتداد للحرب العالمية الأولى ، أو ـ على الأقل ـ بينهما قرابة ونَسَب .. وثأر ، وهذا هو الأظهر والأخطر . وسوف يأتى الحديث عنها مفصلاً فى موضعه بتوفيق الله .

بدأت أول سبتمبر عام ١٩٣٩ ، وانتهت باستسلام ألمانيا النازية فى مايو ١٩٤٥ (٤) وفى تلك السنة ، استسلمت اليابان (سبتمبر) بعد إلقاء قنبلتين ذريتين على مدينتيها الشهيرتين (هيروشيما ، ثم ناجازاكى) . وفى (٥ يونيو) من السنة نفسها ألقى الجنرال « مارشال » محاضرة فى جامعة هارفارد ، أعلن فيها المشروع الأمريكى الذى حَمَل اسمه ، والذى حصلت أوروبا بمقتضاه على مساعدات أمريكية لإعادة إعمارها ، والوقوف على قدميها من جديد ، بعد أن خلخلتها الحرب ، وسَوَّتْها بالأرض .

(٤) اشترك فى الحرب طرفان متقاتلان : دول المحور ، وتضم : ألمانيا ، واليابان ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا وهؤلاء ضد الحلفاء ، وهم : الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، والنمسا ، وبلجيكا ،والبرازيل ،وكندا ، والصين ، والدانمارك ، واليونان ، وهلندا، ونيوزيلندا، والنرويج، وبولندا ، وجنوب أفريقيا، ويوغوسلافيا .

لم تُهزم ألمانيا وتخسر الحرب فقط ، وإنما دُمرت كلها تدميراً . وفى الاجتماع التاريخى الذى عقده فى يالطا رؤساء حكومات أمريكا وروسيا وبريطانيا فى يوليو ١٩٤٥ ، شُرحت « جثة » ألمانيا (الرايخ) إلى أربع مناطق محتلة (بعد أن أدخلوا معهم فرنسا)، وصارت برلين داخل منطقة الاحتلال السوفيتى . وأصبحت روسيا السوفيتية امبراطورية ضخمة ، تدور فى فلكها دول شرق أوروبا الاشتراكية. وعلا نجمها الأحمر، وكأنها المنتصر الوحيد فى الحرب ، يتزعمها القوى الرهيب (جوزيف ستالين) ذو القبضة الحديدية ، وصاحب النظام الصامد الصارم .

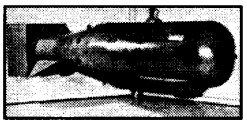

القنبلة الذرية الأمريكية (من اليورانيوم ٢٣٥) .

خرجت فرنسا من الحرب مقهورة مهلهلة بعد احتلال ألمانيا لها خلال سبعة أسابيع فقط ، وإقامة حكومة فيشى برئاسة الماريشال « بيتان » . ثم ظهرت خلال الحرب شخصية الجنرال « دوجول » التاريخية الفذة ، الذى أصرَّ ـ بشجاعة ، وثقة ، وصبر ، وعناء ـ على تحرير فرنسا ، ورَدّ اعتبارها ، وإعادة بنائها من جديد ، بعد أن فقدت نحو نصف ثروتها القومية ، وملايين من أبنائها فى الحرب ، ونصف مليون آخرين عقب الحرب باسم « التطهير » ، أى التخلص من الرجال والنساء الذين تعاونوا مع الغزاة الألمان المحتلين .

ستالين الرهيب

ونفس الدمار والخراب حدث فى بلجيكا ، وهولندا ، ودول الشمال الأوروبى .. أما فى بريطانيا ، فقد أفاق المواطنون فى أعقاب الحرب ، وتساءلوا : وما الثمن ؟ ما النتيجة ؟.عَزلت بريطانيا قائد الحرب (ونستون تشرشل)، بعد أن اكتشفت أن «النصر » فى الحرب ما هو إلا خداع وزيف . إنها فقدت معظم أسطولها التجارى الذى رفعها إلى مرتبة سيدة بحار العالم لعشرات السنين . كما فقدتْ تفوقها التجارى العالمى، واحتياطيها الكبير من الذهب ، وتوازنها الاقتصادى ، ومستعمراتها الشاسعة التى تخلت عنها واحدة إثر أخرى ، وأُجبرت على الاعتراف باستقلال مصر ومحمياتها فى الشرق الأوسط ، ثم رضخت للاعتراف باستقلال الهند . إنها الآن « الأسد العجوز»،تستجدى الولايات المتحدة الأمريكية ، كى تأخذ بيدها ، وتُخرجها من مأزقها . لقد شعر المواطن البريطانى بوطأة الكارثة .

طوابير الروس تقف بالساعات أمام مجمعات بيع المواد الغذائية فى موسكو العاصمة .

واستسلمت اليابان بعد قنبلتى هيروشيما ، وناجازاكى الذريتين .

وانطوت فى واقع الأمر تحت حماية الولايات المتحدة. وتراجع الرجل الأوروبى الأبيض من كل أنحاء آسيا، ومن مناطق كثيرة بأفريقيا . وأَجبرت الولايات المتحدة هولندا على التخلى عن إندونيسيا ، وأظهرت استياءها من نفوذ فرنسا بالهند الصينية .

وانقسمت الصين على نفسها : بين الوطنيين بزعامة شيانج كاى شِك ، والشيوعيين بقيادة ماوتسى تونج .وحاولت الولايات المتحدة الوفاق بينهما ، وظهور « الصين القوية الديموقراطية » ،ولكن خاب ظنها ومسعاها . وتقسمت الهند درة المستعمرة البريطانية إلى باكستان ودولة الهند .

واشتعلت معارك وحروب محلية وإقليمية فى مناطق مختلفة من العالم ، نتيجة للسياسات الخاطئة للدول الكبرى والاستعمارية ، أو بتحريض منها ... فانجلترا تعِد اليهود بوطن فى فلسطين ، غَصْباً وقهراً . وفى عام ١٩٤٧ قررت لجنة من هيئة الأمم المتحدة إقامة دولة إسرائيل المستقلة على الأراضى الفلسطينية، رغم معارضة شديدة من الدول العربية والشعوب الإسلامية . واعترفت أمريكا على الفور بتلك الدولة الغربية المحشورة حشراً وعُنْوة داخل الدول العربية ، ثم أعقبتها روسيا السوفيتية ، فتعترف بها .

وفى السنة نفسها ـ ١٩٤٧ ـ واجهت فرنسا مصاعب متوالية فى إمبراطوريتها وراء البحار : فالمعارك تحتدم فى فيتنام ، وفى مدغشقر تشتعل ثورة ، وفى المغرب يعلن السلطان محمد الخامس انتهاء الحماية .

وتشهد أوروبا صراعات وقلاقل واضطرابات بين الأحزاب السياسية ـ خاصة من جانب الشيوعيين والاشتراكيين ـ فى وقت إعادة بناء أوروبا ، وإصلاح ما أفسدتْه الحرب شرقاً وغرباً . وفى اليونان تندلع الحرب الأهلية . وفى يوغوسلافيا يتحرر تيتو من الاحتواء السوفيتى . وفى الهند يُغتال بطل المقاومة والتحرير : غاندى . وفى بروكسل (بلجيكا) تُعقد اتفاقية تعاون عسكرى بين: بريطانيا ، وفرنسا ، ولوكسمبورج ، وهولندا ، وبلجيكا . وفى ألمانيا الغربية (الفيدرالية) تُنفذ إصلاحات نقدية أساسية تدعم الاقتصاد القومى ، وتنهض بألمانيا الجديدة على يد إيرهارد ، ثم اديناور ...

وتبدأ « الحرب الباردة » بين قطبى السياسة العالمية : الولايات المتحدة الأمريكية ودول الرأسمالية الغربية ، والاتحاد السوفيتى وكتلة الدول الشيوعية ؛ فتُثمر الحرب الكورية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٣) وأزمة الصواريخ

الأخوة الأعداء :
آخر صورة لشيانج كاى شك (إلى اليمين) وماوتسى تونج قبل اتقسامهما وتقسيم الصين (عام ١٩٤٩) بينهما .

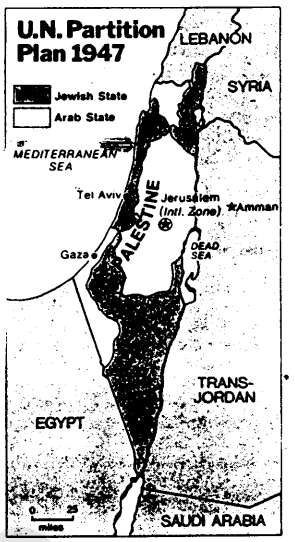

قرار الأمم المتحدة الجائر عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين العربية وزرع دولة لليهود فى قلب العالم العربى.

القوات المصرية الباسلة تكبِّر الله وترفع العلم المصرى فى انتصار حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ على اسرائيل الغاصبة.

فى كوبا (١٩٦٢)، ويشهد الشرق الأوسط حرب السويس (١٩٥٦)، ومعها حرب أمريكا الفاشلة فى فيتنام (١٩٥٦ ـ ١٩٧٥) ، ثم حرب الانتصار المصرى العربى الكبير على إسرائيل (أكتوبر ١٩٧٣ ـ أو حرب رمضان المبارك) . وحروب أخرى : فى كمبوديا (٧٠ ـ ١٩٧٥) ، وإيران ـ العراق (٨٠ ـ ١٩٨٨) ، وفوكلاند بين الأرجنتين وبريطانيا (١٩٨٢) ، وحرب الخليج (بعد غزو العراق للكويت ١٩٩١) ، ومعارك رهيبة وحشية فى يوغوسلافيا (١٩٩١) و(١٩٩٩)، ثم فى رواندا وبوروندى، والكونغو ، وليبيريا ، وغانا وتتخلص جنوب أفريقيا من التمييز العنصرى .. وسلسلة لا تكاد تخبو ولا تنقطع بدأت بالحرب العظمى (العالمية الأولى) ولا أحد يدرى متى تنتهى .. فالإنسان هو الإنسان ، سرعان ما يبادر إلى الظلم والإيذاء والشر والمفسدة .

ومع ذلك .. ورغم كل ذلك .. كانت الحياة فى كل مكان عامرة بالإنجازات والإبداعات ، مزدهرة بالعلوم والفنون والآداب والابتكارات .وآمال الناس فى الإصلاح لا تنقطع ، وطموحات الشعوب فى المستقبل الأفضل لا تغيض . وتحررت من الاستعمار والسيطرة دول ، وانطلقت من التخلف والركود أمم، واكتُشفت من الأرض نطاقات ومجاهيل ، واستُخرجت على امتداد القرن كنوز من الخيرات والمحاصيل . مَدَد هائل كالسيل متدفق ، وفيض وافر كالغيث بشير . ومن خلال هذا وذاك ... برز رجال ، وحظيت بالشهرة نساء، كانت لهم ، ولهن مواقف وحكايات ، قد لا تخلو من طرائف ودُعابات.

بطولة منسية : الثورة المصرية (١٩١٩)

البطولة هنا يُقصد بها بطولة « شعب مصر »، قبل أن تكون بطولة أفراد ، أو حكام، أو قادة وزعماء ، لأن ثورة ١٩١٩ التى هبَّت تطالب بالتحرير والاستقلال ، وزوال الحماية البريطانية فى ظروف صعبة معقدة ، كانت فى جوهرها إرادة أمة ، وانتفاضة شعب ، وتحرك تلقائى لجماهير فلاحين وعمال وطلاب ومثقفين وعلماء ، مسلمين وأقباط ، صنعوا هم زعماءهم

،واختاروا هم قادتهم ، وصاغوا هم نهج ساستهم ، وظلوا حتى النهاية ـ طوال سنوات ـ جبهة واحدة صابرة صامدة ، منضبطة متماسكة ، لا تَملّ ولا تكلّ ، تعى جيداً هدفها، وتدرك تماماً مكر عدوها ، وتلتزم راشدة أسلوب كفاحها ، لا تَهاب ولا ترتاب ، لا تفرط ولا تساوِم ، لم تداهِن ولم تهادِن، إلى أن قضَى الله أمراً كان مفعولاً .

إن كل المؤلفات والحوليات والمراجع وكتابات الساسة والمؤرخين ،شرقاً وغرباً ، تناولت ـ بإسهاب وتفصيل ـ الثورة الروسية التى بدأت مع مطلع هذا القرن العشرين ، وعاصرت فى بعض مراحلها الثورة المصرية ، ولازالت حتى اليوم موضع شرح وتحليل وتعليق ونقد . وهى حقاً تستحق ، لأنها أسهمت بقدر كبير ـ إنْ خيراً أو شرًّا ـ فى صياغة أحداث معظم القرن ، حتى انتهت بالإفلاس والفشل والضياع مع أوائل الثمانينيات (كان انحدارها خافياً عن العالم فى السبعينيات)ولفظت أنفاسها الأخيرة مع سقوط حائط برلين (١٩٨٩) الشهير .

ولكن الثورة الشعبية المصرية (١٩١٩) لم تأخذ حظها الواجب من التبصرة والتذكرة، وتكاد تتوارى فى غياهب الغفلة والنسيان ، رغم تميزها بنبل المقصد ، وصدق الوعد ، وعدالة المطلب ، وثبوت الحق ، وسلامة المنهج والأسلوب ، وضْعاً فى الاعتبار قسوة الظروف والملابسات التى أحاطت بها من كل جانب محليًّا ، وإقليميًّا ، وعالميًّا . وهذه بعض دعائم حجتنا فى ذلك ، ولكم أن تضيفوا إليها المزيد .

١ ـ إن الثورة الروسية كانت تهدف إلى هدم سلطة نظام قائم ، على رأسه قيصر روسى ، يحكم البلاد وفق دستور ومؤسسات شرعية عاملة . أما الثورة المصرية ، فكان هدفها : استرداد حقها فى الحرية والاستقلال ، والتخلص من الحماية البريطانية المذلة الغاصبة ، التى فُرضت على مصر بغياً وقسراً ، ووعدها المحتل المخادع المراوغ أكثر من مرة بالجلاء ، ولا وفاء !.. فهذه فى روسيا ثورة فئة من الشعب ، تبغى تغيير نظام الحكم المحلى وفلسفته ، وتلك فى مصر ثورة شعب بأكمله ، يطلب حقه الطبيعى المغتصَب ، ويريد أن يدفع عن نفسه وعن أرضه عدوان محتل أجنبى ، يفرض وجوده غير المشروع ، وسيطرته الدخيلة بالقوة والقهر .

٢ ـ أيًّا كان مقدار الحُسن أو القُبح فى شكل نظام الحكم القيصرى ، أو البولشفى (الشيوعى) ـ ولسنا فى مجال التقييم والترجيح ـ فإن الثورة

الروسية حوَّلت البلاد إلى حرب أهلية لسنوات ، سالت فيها الدماء بوفرة وقسوة ، واستخدمت فيها الأسلحة ، وأساليب الدعاية والدعاية المضادة ، والمؤامرات والدسائس والغدر . أما الثورة المصرية، فكانت كفاحاً سلميًّا لشعب واحد متحد فى الهدف والوسيلة ، سلك فى المطالبة بحقه الشرعى أساليب واضحة مقررة مشروعة . ولئن سالت أثناء الثورة على أرض مصر دماء ، فهى من ضحايا العدو الغاصب المحتل ، الذى ادعى أنه جاء ليحمى بسلاحه شعب مصر، فإذا به « يقتل » بهذا السلاح أبناء مصر الذين لم يرفعوا فى وجهه سلاحاً ، أو يدخلوا معه فى معركة قتال ، بل إنهم دافعوا عنه ـ مرغمين ـ أثناء الحرب العظمى ، وقدموا له العون والمساعدة .

٣ ـ إن « الثوار » الروس البلاشفة ضحوا بأجزاء كبيرة من الأراضى التى كانت داخل حدود روسيا القيصرية ، وتنازلوا عنها بمجرد عقد اتفاقية إنهاء الحرب مع الألمان ، وذلك من أجل الحصول على السلطة والاستيلاء على مقاليد الحكم (فى كتابات المؤرخين المدققين : اتفق لنين نفسه ـ وهو بالمنفى ـ سرًّا مع الألمان على أن يساعدوه على إنجاح تسلله إلى روسيا ، عندما بدأت القلاقل بها، وأن يساندوه فى محاولته الانقلابية، مقابل عقد معاهدة سلام ، وإنهاء الحرب معهم ، والتنازل لهم ـ وفقاً لمطالبهم ـ عن مناطق من أراضى روسيا الشرقية) .أما الثوار المصريين ـ أى الشعب كله قبل الزعماء والقادة ـ فكانوا حريصين على استقلال البلاد ـ كل البلاد ـ شمالاً وجنوباً ، دون تفريط فى أى جزء من أراضيها .

٤ ـ لم تكن الثورة الروسية مستندة إلى أغلبية شعبية تمنحها حق ممارسة السلطة على الجميع ، إذ كان البلاشفة قِلة ،بينما كان الشعب المصرى كله مساهماً فى الثورة ، ملتمساً سنداً ـ إلى جانب حقه الطبيعى ، واتفاقيات ووعود بريطانيا المتكررة السابقة ـ من مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون ، التى أقرتها الدول ، ومنها : حق تقرير المصير بحرية لكل الشعوب ، قوية أم ضعيفة ، وعدم فرض سياسة عليها من الخارج بالتهديد أو الإرهاب .

٥ ـ كان من بين أهداف الثورة الروسية ـ حتى فى أيامها الأولى ، وقبل أن تَثْبت وتستقر ـ أن تصدِّر مفاهيمها وأساليبها الدموية العنيفة إلى الخارج ، وإلى دول فى أوروبا ذاتها . أما الثورة المصرية ، فكانت تعرف جيداً إلى أين تمضى ، ومتى تقف .. فهى ثورة شعب ينادى فقط بكسر قيوده ، وطرد مستعمره ، ولا يبغى تصدير أفكار ، ولا مذاهب ، أو انقلابات .

٦ ـ إن أسلوب الثورة الروسية ومنهجها فى فرض نفسها على شعبها بالقوة والعنف ليس جديداً على الدول والشعوب . والثورة الفرنسية أظهر مثال على ذلك ..أما أسلوب الثورة المصرية الرصين السديد (الملائم للظروف المحيطة بها آنذاك) ، فكان نموذجاً متميزاً ممتازاً فى التاريخ الحديث ،قبل ثورة غاندى السلمية فى الهند .

٧ ـ استعانت الثورة الروسية بكل القوى المتاحة لديها، المشروعة وغير المشروعة، وبفرق شعبية جنّدتها وسلّحتها ، وبقيادات من الجيش ، استمالتها ووعدتْها . وكان « العدو » بالنسبة لتلك الثورة ، أولئك الذين خالفوها فى الرأى أو الفكر ، أو اختلفوا معها فى المنهج والأسلوب ، وهم فى النهاية أبناء الشعب، ومن الروس . أما الثورة المصرية ، فلم تجنّد ، ولم تسلّح ، ولم تزين لأحد ، أو تستميل ... فالكتل الجماهيرية كلها متحدة الرأى والهدف العام (وإن تنوعت آراء فى التفاصيل) ، و« عدوها » واضح معروف. ومَن هو ؟ . أقوى قوة ـ فى الظاهر ـ آنذاك : بريطانيا العظمى ، سيدة البحار ، والإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

٨ ـ إن كل أمة كانت خاضعة للاستعمار وجبروته ، وأخذت بعد ذلك بأسلوب الثورة المصرية للحصول على استقلالها وحريتها ، نجحت وأفلحت (وهذا لا يعنى مطلقاً أننا ننكر على أصحاب الحقوق الوطنية المغتَصَبة أن يأخذوا بالقوة ـ وبكل قوة ـ حقوقهم ، إذا لم يكن من وسيلة أخرى ناجعة أو مناسبة غير ذلك) . وفى المقابل ..فإن معظم الشعوب التى لجأت إلى منهج الثورة الروسيـة فى التآمر والانقلابات الدموية والصراعات والحروب الأهلية ـ فى أوروبا الشرقية ، وآسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية الجنوبية ـ ظهر فى النهاية أنها غالباً كانت تبغى مصالح شخصية ، وأدت إلى دمار تلك الدول فكريًّا ، واقتصاديًّا ، وحضاريًّا ؛ ودفعت الشعوب الثمن غالياً .

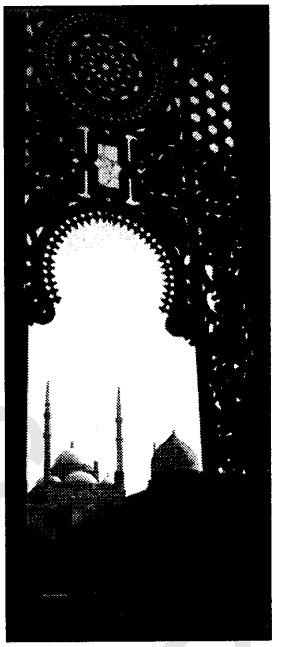

٩ ـ إن سمو الثورة المصرية كان فى بساطتها ، وتلقائيتها ، ووضوحها ، وصدقها مع النفس ومع الناس . لم تحرك خيالاتها ، أو تحرض غرائزها مبادىء مبهمة ، ولا شعارات مزينة ، كما كان الأمر مع الثورة الروسية ، التى بدأت مثلاً بشعار تحرير الشعب من ظلم وقهر السلطة الحاكمة ، وإقامة دولة العمال التى فيها يحكمون وينعمون ، وإذا بالعمال وبالشعب كله يخضع لنظام أشد فتكاً وقسوة وقهراً ـ خاصة أيام ستالين ـ وانسحق فى ظله ملايين وملايين ، أو شعار إزالة الطبقات الاجتماعية ، وإذابة الفروق

اللا إنسانية .وإذا بالثورة ـ منذ البداية ـ تجعل أعضاء الحزب الوحيد الأحمر ـ وهم الأقلية ـ فوق الشعب كله ، وقادة الحزب ومَن فى مركز السلطة فوق الحزب وفوق الشعب ، لهم كل الامتيازات المادية والمعنوية إلى درجة النفوذ ـ المطلق أحياناً ـ والترف والرفاهية (كان بريجنيف مثلا من هواه جمع أحدث السيارات الفاخرة ... الغربية) .

حقا .. إن « مصر » لم تكن قوة عظمى ، ولا دولة عظمى بمقاييس الدول الكبرى آنذاك .. ولكنها ـ بشعبها ، وفى ثورتها ـ دولة عظيمة ، وشعب عظيم.

● بواعث الثورة :

لم تتفجر ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ فجأة ، أو بين عشية وضحاها . وإنما كانت الثورة نهاية مرحلة أو مراحل ، أدت إلى ذروة الغضب العام ، والسخط الذى ضاق عنه التصبر والانتظار . والحق أن الشعب المصرى ـ بتاريخه وحضارته ، وما تقلب عليه من عصور وأحداث أكسبته الحكمة والوداعة ـ ينهض عند الاضطرار والحسم فى عزم وبسالة ، ويصمد فى عزة وكرامة ، ويضحى غالياً ولا يستكين .. ولو بعد حين . وقد ثار شعب مصر أكثر من مرة أيام الحملة الفرنسية ، وأيام الولاة الأتراك، وأيام محمد على ، واندثر كل هؤلاء ، وبقى الشعب بأصالته وسِماته ومواقفه وتاريخه.

قبل الحرب العالمية الأولى (العظمى) كانت مصر ـ باعتراف معاهدة لندن عام ١٨٤٠ التى أقرتها كل الدول ـ دولة مستقلة فى نطاق السيادة العثمانية ، وهى سيادة صارت إسمية أو شكلية ، تمثلت فى الجزية التى تدفعها مصر كل عام لتركيا (٧٥٠ ألف جنيه عثمانى) ، ولا تمس الاستقلال . ثم دخل الإنجليز مصر عقب أحداث الثورة العرابية باحتلال عسكرى لا سند له ، ولا مبرر (عام ١٨٨٢) ، أخضع حكم البلاد لمشيئته ولمصالحه ، وألغى الدستور ، وحاول فصل السودان عن مصر ، وقد كانا دولة واحدة .. فكان «المعتمد البريطانى » هو الحاكم الآمر المطاع ، رغم وجود الخديوى ، والحكومة ممثلة فى رئيس الوزراء والوزراء .

لما أعلنت النمسا الحرب على الصرب فى ٢٨ يوليو ١٩١٤ ، (بعد مقتل الأرشيدوق ولى العهد) أسرعت روسيا بإعلان الحرب على النمسا لنجدة الصرب، فكان لابد أن تدخل المانياالحرب ، وقوفاً إلى جانب حليفتها روسيا . كل ذلك .. ومصر تلتزم موقف الحياد ... فلما أعلنت بريطانيا دخولها الحرب

إلى جانب فرنسا وروسيا ، فرضت على مصر اتّباع موقف المستعمرات البريطانية : وضْع البلاد ـ بموانيها ، ومدنها ، وطرقها فى حالة حرب (إلى جانب بريطانيا بالطبع) ، بحجة « أن وجود جيش الاحتلال فى القطر المصرى ، يجعل هذا القطر عرضة لهجوم أعداء صاحب الجلالة البريطانية ». هكذا صدر قرار مجلس الوزراء المصرى فى ٥ أغسطس ١٩١٤ ، ثم توالت القرارات ، ومنها:مصادرة السفن الألمانية ، والنمساوية ، والمجرية الموجودة بالثغور المصرية ، وفرض الرقابة على البرقيات والخطابات المرسلة بين مصر والخارج ، أو السودان (رغم أن السودان كان جزءاً من الدولة المصرية !)، ومُنع التجمهر ، وفُرضت عقوبة عليه بالسجن والغرامة : « كل اجتماع من خمسة أشخاص على الأقل فى طريق ، أو محل عمومى ، ولو لم يكن له قصد جنائى .. متى رأى رجال السلطة أنه يجعل السلْم العام فى خطر » !. فلما دخلت تركيا الحرب ضد روسيا فى أول نوفمبر ١٩١٤ ، أصدر الجنرال ماكسويل ـ قائد الجيوش المحتلة فى مصر ـ قراراً فى اليوم التالى بإعلان الأحكام العرفية « لكى يتضمن حمايته .. وبناء على ذلك .. صار القطر المصرى تحت الحكم العسكرى »، ووُضعت الرقابة على الصحف .

السلطان التركى عبد الحميد

فى ٥ نوفمبر ، أعلنت بريطانيا أنها فى حالة حرب مع تركيا ،فنشر الحاكم العسكرى البريطانى (ماكسويل) بياناً فى الوقائع المصرية يوم ٧ نوفمبر ، أشار فيه إلى أن إنجلترا تحارب تركيا لغَرضين : « الدفاع عن حقوق مصر وحريتها التى اكتسبها محمد على فى الأصل فى ميدان القتال ، واستمرار هذا القطر فى التمتع بالسلم والرخاء » ، ويطلب من المصريين فقط : الامتناع عن أعمال عدائية ضد الإنجليز ، لأن بريطانيا تعهدت بتحمل جميع أعباء هذه الحرب « ولعلْم بريطانيا العظمى بما للسلطان (العثمانى) ـ بصفته الدينية ـ من الاحترام والاعتبار عند مسلمى القطر المصرى ، فقد أخذت ـ بريطانيا ـ على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب ، بدون أن تطلب من الشعب المصرى أية مساعدة ..». وحدث بعد ذلك .. أَنْ ألزم جيشُ الاحتلال مصرَ بمساعدات مالية، وبشرية، وأعمال مدنية وعسكرية ، إضافة إلى ما ارتكبه جنود الاحتلال من حوادث اعتداء ، وابتزاز ، ونهب ، وضرب وقتل . والتناقض الفاضح الواضح ظهر من انتحال الأسباب : إذ كيف تحارب بريطانيا تركيا حماية ودفاعاً عن حقوق مصر وحريتها ، وفى الوقت نفسه تتحمل أعباء الحرب ، احتراماً لمكانة السلطان الدينية ؟.

وفى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ ، أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر . وجاء فى بيان الإعلان بالوقائع المصرية :« ..وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته (ملك بريطانيا) كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر، وحماية أهلها ومصالحها » .

فى ١٩ ديسمبر ، نشرت الوقائع المصرية :« يعلن ناظر (وزير) الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى ، أنه نظراً إلى إقدام سمو عباس حلمى باشا[١] خديوى مصر السابق على الانضمام لأعداء الملك ، فقد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية (المصرية) . وقد عُرض هذا المنْصب السامى ـ مع لقب « سلطان مصر » ـ على سمو الأمير حسين كامل باشا ، أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على ؛ فقَبِله » .

الآن الخارجية البريطانية هى التى تخلع عن العرش ، وتنصِّب ، وتمنح الألقاب ، فى دولة تعترف فى بياناتها وقراراتها أنها « مستقلة » ، « زالت سيادة تركيا عليها » ، وأن مهمة بريطانيا هى : « الدفاع عن حقوق مصر وحريتها»!.. مَن منح بريطانيا « العظمى » هذا الحق ، ومَن خوَّلها تلك السلطة ؟ !، وماذا كان رد الفعل الرسمى داخل مصر ؟ .

الخديــو عباس

بناء على قرار فرض الحماية ، أُلغيت وزارة الخارجية المصرية ، فلم يعد هناك اتصال مصرى رسمى ودبلوماسى بالخارج . وفى الداخل ، تقبلت المؤسسات الرسمية هذا الأمر بلا معارضة أو احتجاج ، ولو شكلى (ولو على نمط «نَشجب »، أو « نُدين »، أو « نُندد »..) ، فلا الحكومة (القائمة وقتها) ، ولا الجمعية التشريعية (تشبه البرلمان) ـ التى هى نائبة عن الأمة ـ ارتفع لهما صوت ، سوى صوت وكيل الجمعية التشريعية المنتخَب ـ سعد زغلول باشا ـ الذى كان فى استقبال أول مندوب سام بريطانى فى عهد الحماية ـ سير ماكماهون ـ بمحطة قطار العاصمة عند وصوله فى ٩يناير ١٩١٥ ، إذ قال عنه بصوت سمعه الحاضرون من المستقبلين :« إن دلائل الخير بادية

السلطان حسين كامل

(١) كان الخديوى عباس وقت نشوب الحرب فى تركيا منذ أوائل الصيف ، وألح عليه رشدى باشا رئيس الوزراء بالعودة ، لكنه تردد .

على وجهه ، وآمل أن يجزل الله لمصر الخير على يديه » [٢].وقَبِلَ رشدى باشا رئاسة الوزارة الجديدة فى ظل الاحتلال ـ وكان رئيس الوزراء قبل الاحتلال ـ وقال فى خطابه إلى السلطان حسين كامل :« مولاى .. إننى كنت وكيلاً عن ولى الأمر السابق (الخديوى عباس حلمى) ، ولكننى مصرى قبل كل شىء ، وبصفتى مصريًا ، فقد رأيت من المفروض علىّ أن أجتهد تحت رعايتكم السلطانية فى أن أكون نافعاً لبلادى ....وإننى ـ بكل احترام وإجلال لعظمتكم السلطانية ـ العبد الخاضع المطيع المخلص » . ومؤسف أن يكون رئيس وزراء عبدًا خاضعاً مطيعاً مخلصاً لسلطان، عيّنه بالأمس حاكم عسكرى أجنبى ، دخيل ، غاصب ، محتل ! .

حسين رشدى باشا

خيم على الشعب الصمت والوجوم والدهشة من وقع الكارثة . كانت هذه أول مرة فى تاريخ البلاد تُفرض فيها الأحكام العرفية ، مع تدفق قوات الجيوش البريطانية المسلحة ، وأخبار المعارك الحربية بين الدول الأوروبية تتْرى ، وبما تحمل من بيانات مفزعَة عن الضحايا والتدمير والإهلاك .. بين مشاعر الغضب والضيق والألم ، إذا بالاحتلال الماكر يزيد الناس ـ البسطاء ـ حيرة وقلقًا ؛ فيحيط الوزراء ، ومن يرتمون تحت أقدامه من «الكبراء » بالأبهة والألقاب ومظاهر الترف والتبجيل المزيف ، وأوحى إلى السلطان بإضفاء لقب « دولة » على رئيس الوزراء ،و « صاحب المعالى » على الوزير ، ورئيس الجمعية التشريعية والسردار ورئيس الديوان السلطانى ورتبة «الباشا » ، ورتبة « البك »، ولقب « حضرة صاحب السعادة » ، أو لقب «صاحب السعادة » (فقط بدون حضرة !) على من يميلون كل الميْل ، أو بعض الميل إلى دار الحماية البريطانية والقصر السلطانى ، وابتُكرت للقلائل نياشين ، والوشاح الأكبر ... وكلها تبغى اجتذاب الكبراء والمثقفين والأعيان والطامعين والمتزلفين ، وأصحاب التأثير والنفوذ ، فى العاصمة والمدن والأقاليم ، لامتصاص بعض السخط العام ضد الحماية والاحتلال ، وتحويل الاهتمامات إلى التسابق فى الحصول على الرتب والألقاب ، فهى مظهر التفاضل والتفاخر بين الناس .. وما أرذله من تفاخر ، وأسوأه من تفاضل..لو علموا أن مخترع هذه الفكرة الخبيثة هو (نابوليون بونابرت) الذى قال يوما لياوره : « هيا نفكر فى شىء نمنحه للشجعان ، ولكبار

(٢) صحيفة المقطم ، ١١ يناير ١٩١٥ .

الحمقى، والطامعين ، ولا يكلفنا أكثر من شريط على الصدر ، أو قطعة من المعدن » !.

كان هناك احتجاج « سلبى » ، صادر من صفوف الشعب ،مثل ما فعلتْ جريدة كانت تسمى يومها « الشعب » . فكرة ذكية نفذها رئيس تحريرها ـ أمين الرافعى ، شقيق المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى ـ إذ أعلن فى عدد ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ أن الجريدة ـ وكانت واسعة الانتشار ـ ستتوقف عن الصدور عقب هذا العدد ، ثم تعود إلى الظهور بمشيئة الله بعد ذلك . والغرض : لون من الاحتجاج على إعلان الحماية ، وعدم نشر قرار هذا الإعلان ، وما تبعه من قرارات ، وكان النشر مفروضاً على الصحف .

نابليون

ثم استخدم الحاكم العسكرى سلطته فى اضطهاد واعتقال أصحاب الرأى الوطنى المسموع ـ كالعادة مع كل مستعمر مستبد ـ خاصة فى القاهرة والإسكندرية ، ونفى بعضهم إلى مالطة وأوروبا .. فاتخذ طلاب مدرسة الحقوق موقفاً ذكيًّا مشرفاً يعبر عن الرفض والسخط معاً .. فقد أراد السلطان حسين كامل أن يتودد إلى الشعب ، ويمتص بعض غضبه ، فقرر زيارة معاهد العلم .. فلما زار مدرسة الحقوق ،فوجىء بأن المدرسة تكاد تكون خالية من الطلاب . كان هؤلاء الشجعان قد اتفقوا على الغياب، أو التسرب من المدرسة قبيل وصول السلطان إليها ، احتجاجاً على الحماية والأحكام العرفية ، وعلى سلطان أجلسه على العرش مستعمر بغيض .. فاستشاط السلطان غضباً ، واهتزت الوزارة وقررت فصل أربعة وخمسين طالباً (بعضهم كان فى السنة النهائية من الدراسة) ، وحرمان عشرات آخرين من امتحان نهاية العام . ومن هؤلاء وهؤلاء من صار فيما بعد من كبار رجال السياسة والوزارة والفكر والقانون ، مثل: محمد صبرى أبو علم وفكرى أباظة ، وحسين الهضيبى ، ومحمد عبدالله عنان ، وسليمان نجيب ..

فكرى أباظة

وتجاوز الاحتجاج السلبى حدوده إلى الاعتداء على السلطان ذاته .هذه المرة من جانب أفراد عاديين من الشعب ، وليس من الطلاب ، أو المثقفين ، إذ أطلق عليه شاب تاجر خردوات من المنصورة عياراً ناريًّا أثناء مرور موكبه بشارع عابدين بالقاهرة ـ يوم ٨ إبريل ١٩١٥ ـ فأخطأه ، وقُبض على هذا الشاب ـ محمد خليل ـ حُكم عليه بالإعدام شنقاً ، ونفذ الحكم فى ٢٤ إبريل ،

محمد عبدالله عنان

السلطان قنبلة وهو فى طريقه بالإسكندرية ، سقطت على ظهر جواد المركبة السلطانية ، لكنها لم تنفجر . وكان الحادث غامضاً ، استغرق التحقيق فيه وقتاً طويلاً ، لصعوبة الكشف عن الفاعلين . وفى النهاية ، قُدم تسعة شبان إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى بريطانى ـ ! ـ حيث حكم على اثنين منهم بالإعدام شنقاً ، وصدَّق القائد العام للقوات البريطانية على الحكم ، لكن السلطان طلب منه تخفيفه ؛ فاستبدله بالأشغال الشاقة المؤبدة . وحادث ثالث وقع فى سبتمبر من العام نفسه ، إذ اعتدى شاب من موظفى وزارة المالية على وزير الأوقاف بمحطة قطار العاصمة ، طعنه بخنجر ثلاث طعنات فى كتفه ، شفى منها ، وحوكم الشاب ـ صالح عبداللطيف ـ أمام مجلس عسكرى بريطانى ، وحُكم عليه بالإعدام شنقاً ، ونفذ الحكم فوراً .

أبناء مصر الذين جنَّدهم الإنجليز قسرا للدفاع عن الامبراطورية البريطانية فى الحرب العالمية الأولى .

ومع تدفق الجيوش البريطانية على مصر ، أصدر السلطان أمراً بتأجيل اجتماعات الجمعية التشريعية (شبه النيابية) إلى أجل غير مسمى ، استمر نحو عشر سنوات (وحتى بعد صدور دستور عام ١٩٢٣) . وعمدت السلطة العسكرية البريطانية إلى تجميع العمال والفلاحين المصريين بالإكراه والقهر لتشغيلهم بالسخرة ـ بلا أجر ـ فى مصالحها بسيناء ، والعراق ، وفلسطين ، والدردنيل ، وفى خدمة الجيوش فى فرنسا ، وألزمت تلك السلطة رجال الإدارة المصريين والعُمد ومديرى الأقاليم بحشد هؤلاء المساكين قسراً وكانت ـ للأسف ـ فرصة لأصحاب النفوس الضعيفة والخبيثة من الإداريين والعمد للزج بخصومهم ومن يكرهون فى هذه الجموع ،أو الحصول على الرشوة لإعفاء آخرين. واعترف اللورد ملنر فى تقريره بأن « الشعب المصرى تحمل التكاليف والقيود التى اقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا ، وأن الخدمات التى أداها الفَيْلق المصرى للعمال لا تقوَّم بثَمن ، ولم يكن عنها غنى للحملة على فلسطين » .. وكم كان عدد هذا « الفيلق » العمالى المصرى ؟ ١١٧٠٠٠٠ !! .

واستولت السلطات العسكرية البريطانية على معظم الدواب الموجودة فى مصر (الخيول ، والجمال ، والحمير ، والبغال) ، وما تحتاجه من حبوب ، وعلف ، ومؤن ، وحاصلات زراعية ، ومنتجات صناعية بالمجان غالباً ، ونادراً ـ إذا دفعت ـ بأبخس الأسعار ، ووُضعت الموانىء والسكك الحديدية والمركبات والطرق تحت تصرفها ؛ فأرهقتها وأتلفتها ، وخصصت إدارات ومصالح حكومية بأكملها لخدمة الجيوش البريطانية . وفى عام ١٩١٦ جندت ـ للخدمة العسكرية المباشرة ـ نحو ١٢ ألفا من الشباب المصريين ،

أطلقت عليهم اسم « الرديف »، بحجة الدفاع عن قناة السويس ... فلما تركت هؤلاء الجنود أوقاتاً كثيرة بلا طعام ، وكاد أن يهلكهم الجوع ، نظم بعضهم مظاهرة أمام قصر عابدين ، يشكو إلى السلطان ، ويطلب الطعام .وفرَّقتهم السلطة بالقوة ، وأصابت بعضهم بجراح بالغة . وتكررت المظاهرة ، وتكرر الضرب والإصابة والاعتقال ؛ فزاد سخط الناس ومقتهم للإنجليز ،وللسلطة الحاكمة، وللذل المفروض على البلاد والعباد .

الأمير (الملك) أحمد فؤاد

فى ٩ أكتوبر ١٩١٧ توفى السلطان حسين كامل . واعتذر ابنه الوحيد ، الأمير كمال الدين حسين ، عن قبول العرش (قبل وفاة أبيه المريض بيوم واحد) فى خطاب وجهه إليه ؛ فعرض المندوب السامى البريطانى عرش مصر على الأمير أحمد فؤاد ؛ فقبله . وتم تنصيبه بقصر عابدين فى ١٠ أكتوبر ١٩١٧ .

مرة أخرى .. بريطانيا هى التى تختار وتَعرض ، وتنصّب السلاطين ، بلا حق أو شرعية تتيح لها ذلك ؛ فتضاعف سخط الناس ومقتهم .

وفى ٩ مارس ١٩١٨ ، قرر مجلس الوزراء من تلقاء نفسه ـ برئاسة السلطان أحمد فؤاد (الذى سيصبح ملكاً فيما بعد) ـ أن تتحمل الخزانة المصرية (التى هى من أموال الشعب) ثلاثة ملايين جنيه ونصف مليون أنفقتها الحكومة المصرية على خدمات للجيوش البريطانية « اعترافاً بجميل ـ !! ـ بريطانيا العظمى ، التى حَمَت البلاد من خطر الغارات » . هذه المنحَة ، أو الهبة ، أو المكافأة ـ من أموال الشعب ، وليست من ثروات الكبار ـ تقدم عن طيب خاطر للمحتل الغاصب وجيوشه (فضلاً عن خدمات وأرواح أكثر من مليون شاب مصرى) ، فى الوقت الذى تدهورت فيه أحوال البلاد زراعيا وصناعيا وصحيا وتعليميا واجتماعيا ... وكرامة ! ، فلما انتهت الحرب بعقد الهدنة بين المتحاربين فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ ، وأُعلن عن عقد مؤتمر الصلح والسلام فى فرساى [٣]،وكذلك عن مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون . كان لابد أن يعلن شعب مصر رأيه ، وقد نفد صبره ، فكانت الثورة .

وقبل أن ندخل فى التفاصيل ، يجب أن نلتفت إلى تغيرات كبيرة سوف تحدث فى تفكير وسلوك كثير من القادة المصريين والزعماء ، أو الذين فرضت

(٣) بدأ هذا المؤتمر بجلسة افتتاحية فى ١٨ يناير ١٩١٩ ، واستمر بضعة أشهر .

الظروف أن يتولوا قيادة الأمة وزعامتها ، فصاروا أوسع إدراكاً ، وأظهر وطنية ، وأشد عزماً وميلاً إلى رغائب الشعب ومطالب الأمة من ذى قبل ، وهذا يؤكد ما ذكرناه آنفاً .. من أن الشعب بكل طوائفه وفئاته هو الصانع لقادته وزعمائه ، وهو الذى اختارهم وصاغهم على نهجه ، وليس العكس . وهذا فى تاريخ الثورات نادر ، وفى ميزان التقدير رائع وعظيم ، لأن الشعب ـ لا السلطة الحاكمة آنذاك أو الأسرة العلوية ، ولا « الكبار » المترفين المشمولين بحماية ورضا ورعاية المحتل الإنجليزى ـ هو وحده الذى تحمل وقاسى وذاق المرارة والهوان . ويكفى أن نشير إلى مقتطفات من مقالين نشرا فى الصحف اللندنية (أى صحف الاحتلال ذاته) ، وإن كان الواقع الحقيقى أكثر بشاعة، وأشد عذاباً ونُكْرا .

مصريون تعساء فى «الفيلق المصرى للعمال» الذى استخدمه الانجليز بالإكراه والقهر لخدمة جيوشهم المحاربة .

فى ٣ إبريل ١٩١٩ ، نشرت جريدة (رائد العمال) البريطانية موضوعاً عن الثورة فى مصر . ومن بين مآخذها على حكومتها المحتلة : نظام التطوع الإجبارى للخدمة العسكرية الذى فُرض على المصريين أثناء الحرب . وقالت : « وُضع نظام للتطوع ، ظهر عدم كفايته . صَدَرت الأوامر بانتزاع العمال من الحقول بالإكراه . وطريقة ذلك .. أن يدخل رجال السلطة إلى القرية ، وينتظروا عودة الفلاحين إلى منازلهم عند الغروب ، فيحيطون بهم ويحاصرونهم ، كأنهم أنعام سائمة ، فينتقون أفضلهم وأقدرهم على الخدمة .. فإذا رفض أحدهم هذا « التطوع الإجبارى »؛ جُلد أمام الجميع ، حتى يرضخ ويقْبل التطوع .وعلى هذا النحو ساقوا قسراً أطفالاً فى سن الرابعة عشرة ، وشيوخاً جاوزوا الستين ... وأثناء الخدمة ، كان (الكرباج) السوْط هو الكفيل بتسخيرهم للخدمة الشاقة بلا مقابل ، فأصبح الجَلْد من سمات الأعمال اليومية، مع سوء الغذاء ، وقِلة الغطاء ، وانعدام الخيام ، فكان هؤلاء المساكين يبيتون فى العراء .وصاروا فريسة للأمراض والأوبئة .. واجتمع الجوع مع البرد مع العمل الشاق والقسوة البالغة ، وانعدام الرعاية الصحية ، فكانوا يموتون فى الصحراء كالذباب ... ونشأ عن مصادرة البريطانيين للمحاصيل الزراعية وللدواب والجمال ، أن تدهورت الزراعة فى مصر ، وارتفعت أثمان الحاجيات الضرورية للمعيشة ، فعم الغلاء ، وانتشر البلاء ، وشقَّت الحياة على غالبية السكان ، وساد الفقر .. فهل بعد هذا نستغرب إذا بلغ الحقد والبُغض علينا ما بلغا فى قلوب المصريين ؟! وهل يُرضى كل ذلك غُلاة الاستعمار ؟! ».

وفى الشهر نفسه ـ إبريل ١٩١٩ ـ نشرت صحيفة « الديلى نيوز » ـ أى أخبار اليوم ـ مقالاً بتوقيع « مس دورهام » ، تقول فيه :« أقمتُ فى مصر من نوفمبر ١٩١٥ إلى إبريل ١٩١٦ .. وإنى أؤيد ما نُشر ـ من قبل ـ بأن هذا الاضطراب الذى يحدث فى مصر ، إنما يرجع إلى سوء معاملتنا للمصريين . وقد ارتكب ولاة الأمور فى مصر أسوأ الأخطاء،إذ أتوْا بجنود من المستعمرات إلى البلاد المصرية ، من غير أن يذكروا لهم شيئاً عن السكان الذين سيعيشون بينهم . وقد بلغ من جهل هؤلاء الجنود أنهم كانوا يظنون أن مصر بلد إنجليزى ، وأن المصريين قوم دخلاء ، ويعجبون كيف سُمح لهؤلاء «العبيد » [٤] أن يأتوا إلى تلك الديار بهذه الكثرة !. ولقد سمعتُ واحدا من الأستراليين يقول :« لو كان الأمر بيدى ، لطردتُ كل المصريين ، ولم أُبْق على واحد منهم فى هذه البلاد ! ». وكانوا يعاملون المصريين بأشد قسوة واحتقار، وقد رأيت بعينى فى المقصف (الكافيتريا) جنديًّا يضرب بقدمه عاملاً مصرياً أميناً ، لا لشىء ، سوى أنه لم يفهم أمراً أصدره إليه . وأبصرتُ مرة أخرى جنديًّا يلكم بعنف شابًّا مصريًّا متعلماً فى صدره ، ليغتصب منه عصا ثمينة اشتهتها نفسه .لقد سمعت كثيراً من النزلاء الإنجليز الذين التقيتُ بهم فى مصر يقولون فى أسًى : إن ما أحدثه هؤلاء الجنود فى مصر لا يُمحى أثره فى قليل من السنين . وأنا أقسم .. لو كنتُ مصرية ، لما ترددتُ فى بذل كل غال وثمين ، وحتى نفسى ، لطرد الإنجليز من مصر . وإنى ـ والحق يقال ـ كنتُ أخجل لانتسابى لبلادى ، وكثيرا ما أنَّبت الجنود الإنجليز تأنيباً لاذعاً .. ومما زاد الأمر سوءًا أن الجنود عند مجيئهم ، وجدوا الحانات مفتوحة الأبواب ليلاً ونهاراً ؛ فأدى ذلك إلى مخاز اشمأزّت منها نفوس المصريين ، وملأت قلوبهم غيظاً واحتقاراً . وقد شاع فى ذلك الوقت أن الجنود السكارى كانوا ينزعون البراقع من وجوه المصريات » ..

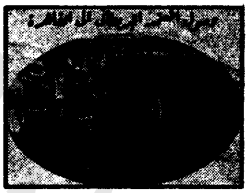

صورة للحفاوة البالغة (والمهينة للشعب) التى كان يلقاها ممثلو الاحتلال البريطانى آنـذاك .

هذه بعض ملامح البيئة العامة التى تفجرت من خلالها ثورة شعب مصر ١٩١٩ : الاحتلال البريطانى الشرس البغيض بضغوطه واستغلاله وسلاحه وكرباجه ؛ والأسرة الحاكمة التى صنعها المستعمر ؛ فأطاعت له ، وخضعت وهى فى معزل كامل عن الشعب وآلامه وعذاباته اليومية ، وتنعم هى بالأبهة

(٤) تعود بنا الذاكرة إلى سقوط الدول الرومانية قديماً . وكان من أسباب انهيارها : كثرة العبيد الذين جلبتهم من المستعمرات ، وأصبح لهم صوت ، ونفوذ ، وثورات .

والترف ؛ والوزارة المستسلمة للمعتمد البريطانى ، والمنفذة لأوامر الحاكم العسكرى قائد الجيوش البريطانية فى مصر؛ وأصحاب الثراء والمناصب الكبيرة والألقاب الرنانة الذين باعوا أنفسهم وعقولهم وضمائرهم للشيطان، أو المستعمر، أو « لولى الأمر » ، أو « ولى النِّعم » ، وكل منهم يناديه، أو يخاطب سيده بقوله : « إننى ـ بكل احترام وإجلال لعظمتكم ـ العبد الخاضع المطيع المخلص » ؛ ورجال الإدارة ضعاف النفوس والأخلاق الذين عاملوا أفراد الشعب ـ العظيم ـ المغلوب على أمره بقسوة ، وصرامة ، وابتزاز، وتضليل ، تنفيذاً لتعليمات أو مطالب سادتهم ، أو تحقيقاً لأطماع شخصية لهم ؛ ثم الجنود الاستعمارية الذين عاثوا فى الأرض فساداً وبغياً وانحلالاً .

محمد فريد

لكن روح الوطنية وبواعث الكرامة وعزة النفس ، كانت غلابة كامنة ، تستثيرها وتوهج نيرانها كلمات كتاب وشعراء ومفكرين ومثقفين وسياسيين ، ومنهم الزعيم الراحل مصطفى كامل (ومن بعده محمد فريد) التى مازالت تدوِّى فى الأسماع ، وتهز المشاعر والقلوب : « إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد . وهى الأساس الذى تُبنَى عليه الدول القوية الراسخة »، « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ، « هل بالاستسلام والتسليم ـ أيها المصريون ـ تقابلون نعمة الله عليكم بمصر، وهى جنة الله فى الأرض ، وأبدع البلدان ؟» ،« لقد بالغنا فى الاستسلام ... وقضت سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد ، وتبذل حياتها رخيصة فى سبيل استرداد السودان ، ثم يُسَلَّم إلى الدولة المحتلة ، وهو بلاد زاهرة ، هو من مصر الروح والفؤاد » ، « أليست لرجالنا قيمة ؟ أليس المصرى فى شريعة الله ككل إنسان ؟ »، « لقد تعاظم الخطْب ، وأصبحت الحياة مُرة ، وبات الوطن فى أشد الأخطار ، وكل منا يُهمل واجباته ، وينتحل لنفسه عُذراً : فمنا من يطمع فى الثروة والترقى ، ومنا من يخاف الذل والفقر ، ومنا من لا يشعر بالمسئولية ، ومنا من استولى على نفسه اليأس والقنوط »، «إنى أشد الناس أملا فى مستقبل أمتى وبلادى. إن الشعب الذى أنا منه ، جدير بالرفعة والسمو ، وأراه حقيقاً بالمجد والحرية والاستقلال» ، « إن الوطنية شعور ينمو فى النفس ، ويزداد لهيبه فى القلب ، ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن ، وعظمت مصائبه » ، «إن مصر جديرة بأن تُحَبّ بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس، بكل حياة » ، « إننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ، ونحن زائلون ...نحن نرى من الآن هذا

الاستقلال المصرى ، ونَبْتهج به ، وندعو له ، كأنه حقيقة ثابتة » ، « كونوا أسعد حظًّا منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويُخرج من الجماهير المئات والألوف ، بدلاً من الآحاد ، للمطالبة بالحق الوطنى ، والحرية الأهلية ، والاستقلال المقدس »...

الأمير عمر طوسون

واستجاب الله تعالى لدعاء ونداء هذا الرجل ، الذى أفنى صحته وحياته من أجل مصر ، وفى حب مصر .. فما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وأُعلنت مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون ، حتى بادر المصريون بانتهاز الفرصة ، واتخاذ خطوة عملية لتحقيق مطالب ورغبات ظلت حبيسة الصدور ، مختلطة بالعذاب والمعاناة لسنوات عجاف طوال . وتألف وفد مصرى للمطالبة رسميًّا فى مؤتمر السلام بفرنسا باستقلال مصر ، وذلك فى نوفمبر ١٩١٨ . ومن هنا يبدأ مسار الثورة المجيدة ، ولسوف نتابعه وفق تسلسل الأحداث ، وبإيجاز(٥).

● أول من فكر فى تأليف وفد للمطالبة بحقوق مصر فى مؤتمر الصلح والسلام هو الأمير عمر طوسون ـ وهو رجل من الأسرة العلوية ، لكن تاريخه حافل بالمواقف الوطنية المشرفة ـ وكان ذلك فى لقاء له مع سعد زغلول أثناء حفل بفندق سان ستيفانو بالإسكندرية يوم ٩ أكتوبر ١٩١٨ ، أى قبل إعلان الهدنة بين الدول المتحاربة « فأقر سعد الفكرة ووعد الأمير بأن يفاتح أصدقاءه بالقاهرة فى تنفيذها » . وفى حفل آخر أقيم فى نفس الشهر بالإسكندرية أعاد الأمير الفكرة على سعد ، مؤكداً أهميتها .. فلما رجعا معاً إلى القاهرة بالقطار فى اليوم التالى ، تناقشا فى التفاصيل ، ثم افترقا على وعد من سعد بأن يخبر الأمير بما سوف ينتهى إليه مع أصدقائه « فلم يتلق منه جواباً » .

● فى يوم إعلان الهدنة ـ ١١ نوفمبر ـ سافر الأمير عمر طوسون (وكان بالإسكندرية) إلى القاهرة وقابل سعداً ، الذى أخبره أن رشدى باشا ـ رئيس الوزراء ـ أقر الفكرة وتحمس لتنفيذها فاتفق مع السير وينْجت المندوب السامى البريطانى أن يأذن بمقابلة سعد وزميليه على شعراوى (باشا) وعبدالعزيز فهمى (بك) لمناقشة هذا الأمر . فقابلوه ـ يوم ١٣ نوفمبر ـ

---

(٥) مرجعنا الأساسى فى هذا السياق هو كتاب « ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ ـ ١٩٢١» ـ ثلاثة أجزاء للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى مع مصادر أخرى عربية وأجنبية . والأستاذ الرافعى أضبط وأدق كمؤرخ ولأنه عاصر الثورة بنفسه وقلمه ، رحمه الله .

وعقب ذلك تألف وفد من بعض الشخصيات بتشجيع من رشدى باشا ، فطلب الأمير الاجتماع بسعد وزملائه بقصره فى شبرا ـ يوم ١٩ نوفمبر ـ وأرسل بطاقات الدعوة إليهم ، لكن جرى الاتفاق بين السلطان ورئيس الوزراء وسعد على إلغاء هذا الاجتماع ، فأبلغ رشدى باشا الأمير بأن الحكومة قررت منع هذا الاجتماع . يقول الأستاذ الرافعى :« وظاهر من هذه الملابسات أن فكرة تأليف الوفد المصرى صدرت أول ما صدرت عن الأمير عمر طوسون وتلقاها عنه سعد باشا وانفرد بها لكى لا تكون الرئاسة للأمير ، إذا ظل مشتركاً فى تنفيذها ، وقد يكون ما عُرف عن الأمير من الجفاء بينه وبين الإنجليز من العوامل التى أقْصته عن الوفد » . والأرجح أن السبب الثانى هو الأصوب ، إذ لم يكن خافياً على سعد باشا شعور الأمير نحو الإنجليز ولا موقفهم منه .

سعد زغلول

● بعد تشاور وتشجيع من رشدى باشا رئيس الوزراء ، اجتمع سعد وأصحابه واتفقوا على تأليف هيئة تسمى « الوفد المصرى » للمطالبة باستقلال مصر وأن تحصل هذه الهيئة على توكيلات من الأمة تخوِّلها هذه الصفة .

أحمد لطفى السيد

● تألف الوفد ـ ١٣ نوفمبر ـ من سعد زغلول باشا رئيساً ، وعلى شعراوى باشا ، وعبدالعزيز فهمى بك ، ومحمد محمود باشا ، وأحمد لطفى السيد بك ، وعبداللطيف المكباتى بك ، ومحمد على علوبة بك .

● اتفقوا على وضع صيغة يوقع عليها أعضاء الهيئات النيابية القائمة آنذاك (كالجمعية التشريعية ، ومجالس المديريات ، والمجالس البلدية) وأكبر عدد من أصحاب الرأى والأعيان وكل أفراد الشعب ، كتوكيل من الأمة إلى أعضاء الوفد للتحدث باسمها وعرض مطالبها فى الاستقلال تطبيقا لمبادىء الحرية والعدل ، سعياً إلى ذلك بالطرق السلمية المشروعة . ولما كان رشدى باشا مؤيداً للفكرة ، فقد أصدر تعليماته إلى مديرى الأقاليم ، بعدم التعرض لجامعى التوكيلات ، فتيسر جمع عدد كبير منها ، وعلى نطاق واسع .

محمدعلى علوبة

● أَوْجس ممثل الاحتلال البريطانى فى نفسه خيفة من جمع تلك التوكيلات وخشى مغبة ارتفاع صوت المطالبة بالاستقلال ؛ فأصدر المستشار البريطانى لوزارة الداخلية أوامره مباشرة ـ دون الرجوع إلى السلطات المصرية ـ بمنع التوكيلات ولو بالقوة . ولكن جمعها استمر وازداد، خاصة مع علم المديرين والجماهير أن رشدى باشا راض عن ذلك .

● ضم سعد زغلول إلى الوفد المصرى أعضاء آخرين ، لضمان تمثيل كل

فئات الأمة : مصطفى النحاس بك (كان قاضياً بالمحاكم الأهلية) ، وحافظ عفيفى بك (ممثلان عن الحزب الوطنى)، وحمد الباسل باشا ، وإسماعيل صدقى باشا ، ومحمود بك أبو النصر ، وسينوت بك حنا ، وواصف بك غالى، وحسين واصف باشا ، وعبدالخالق مدكور باشا (الأخيران عضوان بالجمعية التشريعية) .

● فى ٣٠ نوفمبر طلب أعضاء الوفد من السلطة العسكرية البريطانية ـ بناء على تدابير الأحكام العرفية القائمة ـ الترخيص بالسفر إلى لندن للتفاوض مع المسئولين هناك بشأن مستقبل مصر ، لكن رُفض .

على شعـراوى

●أعاد سعد الطلب ، شارحاً مهمة الوفد الموكَّل عن الأمة « .. على أن سفرنا إلى إنجلترا لا نريد منه إلا أن نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للأمة الإنجليزية ، وللأشخاص الذين يتولون توجيه الرأى العام الإنجليزى ، الذى لا شك فى تأثيرهم على القرارت الحكومية .. ونحن واثقون بأن نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على العدالة والحرية ، وحماية حقوق الضعفاء التى امتاز بها الرأى العام الإنجليزى ..» . وكان رشدى باشا معتزماً من جانبه السفر مع الوفد لمؤازرته ، ولكن رُفض مرة أخرى طلب التصريح بالسفر .

● أرسل الوفد ـ فى ٦ ديسمبر ـ نداء إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر يحيطهم علما بموقف السلطة العسكرية البريطانية ، وبرقية نداء إلى الرئيس الأمريكى ويلسون، وفى كليهما يطلب تحقيق سعى الوفد فى السفر لحضور مؤتمر الصلح ، ويعرض « طلب مصر » فى الاستقلال التام ، لأن الاستقلال حق طبيعى للأمم ، ولأن مصر دفعت ثمناً غالياً من دم أبنائها للحصول على استقلالها بعد الاحتلال الفرنسى . والآن ، وقد زالت السيادة الاسمية لتركيا التى هُزمت فى الحرب ، فقد حان الوقت لإعلان استقلال مصر التام ، وإقامة حكومة دستورية بها ، تحترم الامتيازات الأجنبية ، وحياد قناة السويس، وأن يوضع استقلال مصر تحت ضمانة عُصْبة الأمم لتحقيق مبادىء العدل والحق..

مصطفى النحاس

● اجتمع أعضاء الوفد ـ ١٣ يناير ١٩١٩ ـ بمنزل حمد الباسل باشا ، وألقى سعد زغلول أول خطاب سياسى له بعد تأليف الوفد ، شرح فيه مهمة الوفد فى السعى لتحقيق مطلب الشعب المصرى العادل فى الاستقلال ، وأن مصر والسودان كلٌّ لا يتجزأ .. فكان واضحاً من هذا الخطاب تأثير الروح

الشعبية ، وتعبير سعد عنها تعبيراً قويًّا أميناً وحكيماً ، فأنِس الشعب إليه ، وارتضاه زعيماً للأمة .

● رفضت السلطة العسكرية البريطانية أيضاً التصريح لرشدى باشا ـ رئيس الوزراء ـ بالسفر إلى إنجلترا للتحدث مع الحكومة البريطانية فى شأن مستقبل مصر السياسى ، وكذلك رُفض طلب عدلى يكن باشا وزير المعارف فى السفر مع رئيس الوزراء ؛ فقدم رشدى باشا فى ديسمبر ١٩١٨ استقالته من الوزارة ، موضحاً السبب : وهو تعنت السلطة البريطانية ، وتسويفها فى حصول مصر على حريتها. فطلب السلطان فؤاد ـ بعد مشورة المعتمد البريطانى ـ تأجيل الاستقالة إلى حين مراجعة الحكومة البريطانية ، لعلها تقبل الموافقة على سفره وزميله .. فاشترط رشدى باشا الموافقة أيضاً على سفر الوفد المصرى « وإباحة السفر إلى أوروبا لمن يطلب من المصريين » . وطال الانتظار ، ثم أصر رشدى باشا على الاستقالة ، بعد أن جاء رد الحكومة البريطانية بالموافقة على سفر رشدى وعدلى وحدهما إلى لندن ، دون بقية المصريين .. فقبل السلطان استقالته فى أول مارس ١٩١٩ .

عدلى يكن باشا

● كانت استقالة رشدى باشا بمثابة الشرارة التى أشعلت الثورة المكتومة بالغيظ فى نفوس المصريين ، لأنها أوضحت تماماً ـ وعلى الملأ ـ موقف الاحتلال ونواياه المجحفة فى وقت حرج عالمياً ، ومحاولته إضاعة الفرصة الثمينة على مصر للحصول على حقها . كما أن الاستقالة أثارت مشاعر المصريين ضد القصر السلطانى ، لأن قبول الاستقالة المسببة بهذا الوضوح الوطنى ، يعنى انحياز السلطان لجانب الإنجليز ، وخشيته من إغضابهم . كما أنها أيضا أطلقت إشارة البدء لتحرك الهيئة الجديدة الوكيلة عن الأمة ـ الوفد المصرى ـ واتخاذ ما تراه مناسبا .

● أرسل الوفد ـ ٤ مارس ـ بيانا إلى معتمدى الدول الأجنبية فى مصر، احتج فيه بشدة على سياسة الإنجليز ، ومناوراتهم الماكرة ، لمنع وصول صوت مصر العادل إلى مؤتمر الصلح فى باريس ، ويفند فيه مطامع بريطانيا الاستعمارية «اللامتناهية » وتنكرها المستمر لوعودها وإهدارها لحقوق مصر وشعبها . «والذى نقصده الآن إنما هو أن نُشهدكم على المعاملة الجائرة التى تُرزأ بها مصر لكى تقولوا لحكوماتكم أنه على الرغم من العهود التى التزمت بها إنجلترا على رءوس الأشهاد ، وعلى الرغم من المبادىء التى أقرها الحلفاء بالإجماع ، لا تزال فى العالم أمة تتحكم فيها القوة الغاشمة لخدمة مصالح لا اتفاق لها مع دواعى المدنية ، وهى أقل اتفاقا مع دواعى العدل والإنصاف » .

●● نلاحظ هنا نغمة حلوة قوية رصينة : إنه صوت الشعب وزئيره المجلجل فى عزة وكرامة ، وقد فرض نفسه على لغة القادة والزعماء (مع أن الظروف المحلية هى هى لم تتغير) ، بدلاً من سوابق تعبيرات الخضوع والخنوع التى كانت شائعة وصادرة من « الكبار » بلا استثناء ، سواء فى مخاطبة السلطان، أم سلطة الاحتلال .

شباب مصر من الطلاب أول من أطلق شرارة الثورة ضد الاحتلال البريطانى البغيض .

● تصرَّف الاحتلال بحماقة : فبدلا من حل المشكلة ببساطة ، والتصريح للمصريين بالسفر، ألقى القبض ـ فى ٨ مارس ـ على سعد زغلول وثلاثة من رفاقه : محمد محمود ، وإسماعيل صدقى ، وحمد الباسل . وفى اليوم التالى نقلهم قطار إلى بور سعيد ، ومنها بالباخرة إلى المنفى فى مالطة ؛ فاشتعلت الثورة .

● بدأت بمظاهرات طلابية سلمية يوم ٩ مارس ١٩١٩ من مدرسة الحقوق، ثم تبعتها بقية المدارس . خرجوا تلقائيا بنظام وهدوء يحملون أعلامهم ويهتفون بحياة مصر واستقلالها ، والوفد المصرى ، وسعد ، وبسقوط الحماية الإنجليزية . ومضى اليوم بسلام ، عدا حدوث اعتقال لنحو ثلاثمائة طالب .

● فى اليوم التالى ـ ١٠ مارس ـ كانت المظاهرات أضخم وأروع بانضمام طلاب الأزهر إلى حشود طلاب المدارس الأخرى (كانت الكليات، مثل: الحقوق والهندسة والزراعة تسمى مدارس أيضا) . وفيه تحرش جنود الاحتلال بالمتظاهرين المسالمين ، واعتدوا على بعضهم بالضرب ، وأطلقوا عيارات نارية، راح ضحيتها شهيد مجهول وطفل .

● فى اليوم التالى ـ الثلاثاء ـ كانت المظاهرات أكبر قوة وحماساً ، واجهتها قوات الاحتلال بالعنف والرصاص ، فسقط فيها ست شهداء ـ وفقاً للبيان الرسمى الصادر عن السلطة العسكرية البريطانية ـ وأصيب واحد وثلاثون . وفى هذا اليوم ـ ١١ مارس ـ أعلن المحامون إضرابهم عن العمل ، احتجاجا على موقف الإنجليز وتصرفاتهم المشينة ، وتضامنًا مع الأمة فى طلب الحرية والاستقلال . واستمر الشعب ـ والشباب خاصة ـ فى مظاهراتهم بشجاعة وثبات ، رغم المواجهات الشرسة من جنود الاحتلال .

● استمرت المظاهرات يومى الأربعاء والخميس ، وسقط فيها شهداء وجرحى . وانضم إلى الطلاب عمال وموظفون ؛ فأصدرت السلطة العسكرية إنذاراً إلى الموظفين ، تهددهم بأشد العقاب إذا اشتركوا فى المظاهرات .

● فى اليوم التالى ـ الجمعة ـ كانت مظاهرات كل طوائف الشعب عقب

صلاة الجمعة . وسقط عدد أكبر من الشهداء والجرحى . وخشى المحتل من اشتراك جنود الشرطة المصريين فى الثورة ؛ فجردوهم من أسلحتهم ، عدا العصى ! .

● السبت ١٥ مارس : أضرب المحامون الشرعيون عن العمل ، واشتركوا فى المظاهرات الحاشدة لجميع الطوائف والهيئات . وتعطلت المواصلات ، وتوقفت القطارات مع إضراب عمال السكك الحديدية ، وأُغلقت المتاجر .

● الأحد ١٦ مارس : انضم إلى المظاهرات المتزايدة عنصر مدهش جديد مثير : مظاهرات نسائية من كرام العائلات ، خرجْن فى حشمة ووقار ، سيدات وآنسات ، إعراباً عن مشاعرهن الوطنية ، وتضامناً مع أبناء مصر فى طلب الحرية والاستقلال ، واحتجاجاً على الأعمال الوحشية التى ارتكبها جنود الاحتلال ضد المصريين الوطنيين الأبرياء .وطُفْن على دور المعتَمدين الأجانب ، وهن يحملن الأعلام المصرية واللافتات الوطنية ، وقدَّمْن إلى كل منهم مذكرة توضح رأى المرأة المصرية فى الموقف الراهن ، ومشاركتها أبناء الوطن فى طلب الاستقلال العادل . وفى ختام المذكرة رجاء أن تعمل حكومة المعتمد على نصرة مصر فى قضيتها « لأن فى ذلك نصرة للحق ، وتأييدا لمبادىء الحرية والسلام » . ولم تَسْلم أولئك السيدات الوطنيات الفُضليات

خرجت المرأة المصرية بثقة شجاعة لتنضم إلى مظاهرات ثوار الوطنيين مما لفت نظر العالم كله .

من قسوة ونذالة جنود الاحتلال، إذ اعترضوا طريقهن وأوقفوهن نحو ساعتين فى الشمس الحارة، موِّجهين بنادقهم نحوهُن ؛ حتى صرخن فيهم بالإنجليزية مسفِّهات لهم وقائلات : « نحن لا نهاب الموت . أطلقوا بنادقكم أيها الجبناء إن شئتم » !.

السيدة هدى شعراوى

وقد وقَّع على المذكرة المقدمة إلى المعتمدين الأجانب عدد كبير من الآنسات والسيدات ، منهن على سبيل المثال (بترتيب التوقيع على المذكرة) : حرم حسين باشا رشدى ، وحرم سعد زغلول باشا ، وهدى شعراوى حرم شعراوى باشا ، وحرم محمود رياض باشا ، وحرم محمد سعيد باشا ، وحرم إسماعيل صدقى باشا ، وحرم عمر سلطان باشا ، وحرم عثمان عرفى باشا ، وحرم الدكتور محمد علوى باشا ، وحرم محمد شكرى باشا ، وحرم إسماعيل سرى باشا ، وحرم الدكتور حسن محرم بك ، وحرم الأستاذ محمد أمين يوسف ، وحرم محمد محرز باشا ، وحرم سرى بك ، وحرم أحمد راغب بدر بك ، وحرم أحمد عبداللطيف بك ، وحرم مصطفى بك عبدالخالق ، وحرم أحمد بك لطفى ، وحرم عثمان باشا مرتضى ، والآنسة كريمة عثمان باشا مرتضى ، وحرم أحمد بك أبو أصبع ، وحرم حسن بك خيرى ، وحرم إسماعيل باشا حسنين ، وحرم محمد بك رأفت، وحرم سعيد بك حلمى ، وحرم إبراهيم رفعت باشا ، وحرم محمود سامى البارودى باشا ، وحرم حنا بك مسيحة ، والآنسة كريمة محمود سامى باشا البارودى ، وحرم طاهر بك اللوزى ، وحرم عبدالحليم بك العلايلى ، وحرم على بك سعد الدين ، وحرم الأستاذ عزيز مشرقى ، والآنسة كريمة عبدالفتاح بك اللوزى ، وحرم الدكتور نجيب إسكندر ، وحرم الدكتور محمد العروسى ، وحرم الدكتور إبراهيم حسن ، والآنسة كريمة عبدالمجيد بك رضوان ، وحرم أحمد بك حمدى ، والآنسة كريمة مصطفى بك الباجورى، والآنسة كريمة أحمد بك ندا ، وحرم إسكندر بك مسيحة ، وحرم أحمد بك حجازى ، وحرم نجيب بك فتحى ، وحرم حافظ بك محمد ، والآنسة كريمة الشيخ الأنصارى ، وحرم محمد راتب باشا ، وحرم محمد بك يوسف ، وحرم حسين بك رياض ، والآنسة جولييت صليب .. والآنسة كريمة شوقى باشا ، والآنسة كريمة أمين باشا الشمسى ، ومدام روفائيل بغدادى ، وحرم الأستاذ ويصا واصف ، وحرم أحمد بك شكرى ، والآنسة كريمة إسماعيل أباظة باشا، .. والآنسة مارى ميرهم .. والآنسة كريمة السيد أباظة باشا ، وحرم عبد الله بك أباظة ، وحرم أحمد عفيفى باشا ، والآنسة كريمة محمد الشواربى باشا ،

صفية زغلول

وحرم بهى الدين بركات بك .. وحرم مختار بك الأرناؤوطى ، وحرم صليب بك منقريوس ، وحرم أحمد بك عباس يكن .. وكريمة أمين باشا سيد أحمد ، وحرم فؤاد بك شيرين ...وعشرات غيرهن .

ربما أسرفنا فى ذكر أسماء هؤلاء السيدات والنساء الفضليات ، مع كل الاحترام والتقدير للأخريات الموقعات على المذكرة . ولكن عذرنا فى ذلك .. ثلاثة أمور : أولها توضيح أن الشعور الوطنى الأصيل الغلاب كان سائداً شاملاً لكل أبناء مصر العظيمة، رجالاً ونساء ،وعندما حان الوقت ، ودقت أجراس الكفاح السلمى والنضال الجاد ، لبَّى الجميع ، تلقائيًّا كما ذكرنا آنفاً ، وفقاً لمقتضيات الظروف والأحداث . وثانياً : أنهن يمثلن كل طوائف وفئات الشعب، مسلمين وأقباط ، بلا تفاضل ولا تفرقة ، زوجات وكريمات الباشوات والبكوات والمواطنين العاديين . وثالثا :كانت ثورة ١٩١٩ شعبية بكل معنى الكلمة ، أى أنها فرضت نفسها على كل الأسر والبيوتات ، وغيرت مفاهيم، واستحدثت قيماً جديدة ،اصطبغت بها كل العناصر والأفراد والقيادات . ويستحيل على ثورة بهذا المستوى ـ وإن كانت سلمية متأنية ـ أن تُهزم أو تُهدر حقوقها العادلة المشروعة ، وإن طال بها الزمن .

سعد باشا زغلول بين أعضاء الوفد المصرى مسلمين وأقباط كممثلين للشعب العظيم .

اهتزت مشاعر المصريين لتلك المظاهرة النسائية ، وحياهن شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة رائعة ، قال فيها :

خَرَجَ الغوانـــى يَحْتَجِـجْنَ ورُحـتُ أَرْقـب جَمْـعَهُنَّهْ(٦)

فـــإذا بهـــنَّ تَخِـــذْن مـــن ســـودِ الثيـــاب شِعـارهُنَّـهْ

(٦) الغانية (لغة) : المرأة التى غَنِيت بزوجها ، أوبجمالها وحسنها .

فطَلَعْنَ مثـــــل كواكــب   يَسْطَعْـنَ فـى وسَـطِ الدُّجُنَّـهْ
وأخــذْن يجتـزن الطريـــق   ودار سعـــد قَصْدَهُنـــه
يمشـينَ فـى كنَـفِ الوقـــار   وقـــد أَبَـنَّ شُعُور هُنــه
وإذا بجيـــش مُقبـــلٍ   والخيـلُ مُطْلَقــةُ الأَعِنـَّه
وإذا الجنـــود سيوفُهـــا   قــد صُوِّبَتْ لنُحورهِنَّــه
وإذا المدافـــع والبنـــا   دق والصـــوارم والأَسنَّـه
والخيــل والفرســان قــد   ضَرَبـت نِطاقــا حَوْلهنَّــه
والــورد والريحْـان فـى   ذاك النهــار سـلاحُهُنَّـــهْ
فتطاحــن الجيشـان سـا   عــاتٍ تَشِيب لهــا الأجِنَّـهْ ..

● انتقلت الثورة إلى الأقاليم ، واتسع مداها، بلا تدبير مسبق ولا اتفاق .. فالروح الوطنية الجياشة الغلابة سائدة فى كل مكان ، شمالاً وجنوباً ، وحتى أقاصى الصعيد ، وحتى فى القرى . إن مصر كلها مشتعلة بالثورة ، والعدو المحتل حائر فى كيفية إطفائها، أو السيطرة عليها . وسقط شهداء وجرحى فى كل المدن والبنادر والقرى ؛ فكانت جنازات الشهداء ثورة أخرى فوق الثورة.

● أصدر القائد العام للقوات البريطانية بلاغاً ـ فى ١٣ مارس ـ يتهدد فيه ويتوعد بالإعدام رمياً بالرصاص ، وينذر بحرق القرى ، إذا لم تهدأ الأهالى وتتوقف القلاقل . ثم أمر بمنع خروج الناس من منازلهم من الساعة التاسعة مساء إلى الرابعة صباحاً ، وعدم انتقال سكان القرى من قرية إلى أخرى بعد غروب الشمس .

● توجهت حملات مسلحة إلى المديريات لقَمْع الثورة . وسُيِّرت قطارات

مع توالى أيام الثورة الشعبية فى كل أنحاء مصر ،تزايدت أعداد المشتركين فى المظاهرات يتقدمهم طلاب الكليات والمدارس وطلاب الأزهر رغم تهديد سلطات الاحتلال واعتداءاتهم الدامية.

obeikandl.com

مسلحة إلى مختلف الجهات ؛ فكانت تقابل من الأهالى بقطع الخطوط الحديدية وانتزاعها . وأُنشئت دوريات من سفن مسلحة تجوب النيل والترع وتطلق النار أحياناً من البواخر على الثوار .واسُتخدمت الطائرات الحربية لحراسة القطارات المسلحة ، وإطلاق النار على جموع الشعب الثائرة .

● فى العاصمة ، وفى المدن الكبرى توقفت وسائل المواصلات (الترام ، وسيارات الأجرة ، والأتوبيسات ، والحنطور ..) .ومما ذكره الرواة أن مستشارى محكمة الجنايات ببنى سويف أوقفوا الجلسات بمناسبة الثورة ، ولم يجدوا سوى مركب شراعى ركبوه للوصول إلى القاهرة بعد أيام ، وعند وصولهم إليها لم يجدوا سوى عربة « كارو » نقلتهم إلى منازلهم « وهم فرحون » . وحدث الشىء نفسه مع مستشارى محكمة جنايات أسيوط وأضرب عن العمل عديد من العاملين بالشركات والمؤسسات ، واضطرب العمل فى مصلحة التلغرافات والبريد . وتوقف العمل بالمحاكم الأهلية والشرعية والمختلطة (للأجانب)، كما توقف سريان الإجراءات القانونية نظراً لحالة الاضطراب فى البلاد .

● وبرز دور الأزهر الشريف : « لقد كان الأزهريون فى طليعة صفوف المتظاهرين ، ومن أكثرهم جرأة وحماسة وتضحية ، ومن أشد العاملين على بث الروح الثورية والإضراب بين طبقات الشعب . وكثيراً ما كانت المظاهرات تبدأ من الجامع الأزهر ، كما كانت الاجتماعات العامة تُعقد فيه غالباً .. فكان يموج كل مساء بالألوف المؤلفة لسماع الخطب النارية والقصائد الحماسية تلقى فيه ضد الاحتلال والحماية .. فكان يتعاقب على مِنْبره الأزهريون ، وطلبة المدارس ، وبعض العلماء ، والقُسس ، والمحامون ، والصحافيون ، والعمال ، وغيرهم من مختلف الطبقات.. وفيه كانت تُدبر المظاهرات ، وتُرسم الخطط.

طوائف الأمة باجمعها تشترك فى المظاهرات غير عابئة ببطش قوات الاحتلال .

كان دور الأزهر فى ثورة ١٩١٩ شبيهاً بالدور الذى قام به فى أول ثورة شبت فى عهد الحملة الفرنسية (أكتوبر ١٧٩٨) ، إذ كان معقل الثورة. وقد ذكر «نابوليون » فى تقريره إلى حكومته « أن الأزهر كانت تُعْقد فيه لجنة الثورة». لقد كان الأزهر خلال سنة ١٩١٩ ، وفى فترة من الزمن «المعسكر العام للثـــــورة القـــوميـــة

التـى قامت فى مصر عقب انتهاء الحـرب العالمية ، والتاريخ يعيد نفسه» (٧).

● حاولت السلطة العسكرية البريطانية سد الطرق المؤدية إلى الأزهر ومنع خروج المظاهرات من داخله ، لكن الجماهير كانت دائما تفسد محاولاتها ، رغم الفرق المسلحة المحتشدة بالمنطقة ، باللجوء إلى مسالك يتعذر على جنود الاحتلال الوصول إليها .

● تعددت محافل اجتماع الثوار ـ بخلاف الأزهر ـ فى المقاهى ودور الزعماء والمفكرين والأدباء فى مختلف أنحاء القاهرة والمدن ، وفى « بيت الأمة» مقر إقامة سعد زغلول (المنفى فى مالطة) (٨).

● فى ١٧ مارس خرجت أكبر مظاهرة للثورة . وكانت مُحكمة التنظيم ، وأَبلغ القائمون عليها حكمدارية العاصمة بشأنها مسبقاً . ورأت السلطة العسكرية ـ حقناً للدماء ـ عدم التعرض لها ؛ فركب حكمدار العاصمة رسل باشا (البريطانى) سيارة تقدمت المظاهرة ، حتى لا يصطدم بها الجنود

---

(٧) عبد الرحمن الرافعى ـ ثورة ١٩١٩ ـ جـ ١ .

(٨) كان السبب فى تسمية بيت سعد زغلول (بيت الأمة) موقفا طريفا : ذهب إليه بعض أعضاء الحزب الوطنى فى نوفمبر١٩١٨ لمناقشته فى تعديل صيغة التوكيل المقترح طرحه على الشعب للتوقيع عليه بتفويض أعضاء الوفد المصرى فى التحدث باسم الأمة . ولما احتدت المناقشة قال سعد فى غضب : كيف تسمحون لنفسكم بهذه الحدّة ، وكيف تهينوننى فى منزلى ؟ فأجابه محمد على زكى (أحد الأعضاء الحاضرين) على الفور : إننا نعتبر أنفسنا فى بيت الأمة وليس فى بيت سعد باشا الخاص . فسُر سعد لهذه التسمية ، وقال مبتسما : لقد تنازلت عن ملاحظتى . ومن يومها صار الاسم .

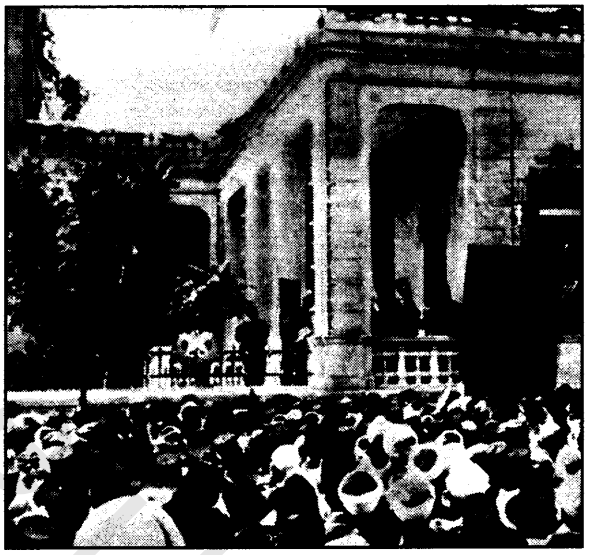

البريطانيون . ضمت آلافاً بالعشرات من كافة فئات الأمة : العلماء والقضاة والمحامين والمعلمين والتجار وطلبة الأزهر والمدارس وأصحاب الأعمال وطوائف الصناع ، تحمل الأعلام والشارات ، وسارت فى نظام كامل تهتف بالحرية وتنادى بالاستقلال .ورغم إطلاق النار من نوافذ بعض البيوت فى أحد المواقع على المتظاهرين (قيل من جنود بريطانيين وقيل بعض الأرمن) فسقط بعض القتلى والجرحى ، إلا أن نظام المظاهرة لم يختل واستمرت حتى نهايتها .

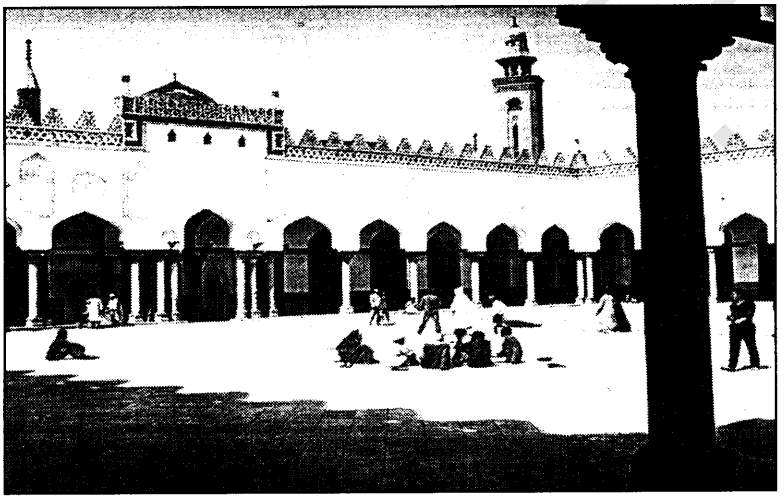

الجامع الأزهر مهد الثورات الوطنية على مدى العصور .

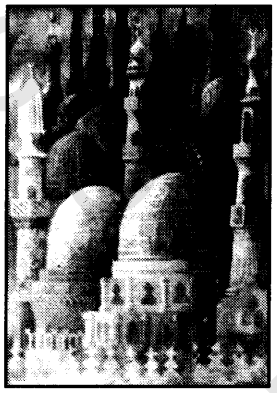

● أصدر القائد العام البريطانى بلاغا فى اليوم التالى بمنع الاجتماعات والمواكب والمظاهرات ، لكن الجماهير لم تعبأ ، على الرغم من نصْب المدافع فى الميادين العامة ، وفى مواقع مختلفة من العاصمة ونشر الجنود المسلحين والفرسان. وفى ٢٠ مارس خرجت مظاهرة نسائية ثانية بالأعلام واللافتات باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ، مثل : « نحتج على قتل الأبرياء » ، «نطلب الاستقلال التام »، مع الهتافات المتلاحقة . وتعرض لها جنود الاحتلال وأوقف المتظاهرات نحو ساعتين فى الشمس . ولما مر بهن القنصل الأمريكى وشاهد الحصار بنفسه، ذهب غاضباً محتجاً إلى مقر القيادة البريطانية التى أصدرت أمراً برفع الحصار عنهن .

● ألَّف المتظاهرون « شرطة وطنية » برئاسة الشيخ مصطفى القاياتى ، مهمتها المحافظة على نظام المظاهرات وعدم تسلل أحد من الغوغاء أو المشاغبين إلى صفوفها ، وحَمْل الماء إلى المتظاهرين عند الحاجة للارتواء . ومع ذلك أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أمراً بمنع هذه الشرطة الوطنية المسالمة المفيدة فى حفظ الأمن والنظام . كما منعت « حَمْل الرعايا المصريين للأسلحة النارية ، أو لأى نوع من الأسلحة داخل حدود محافظة القاهرة .. » .

● على هذا النحو ، استمرت المظاهرات الثورية فى الإسكندرية وفى كل مديريات مصر ، ومدنها ، ومراكزها ، وقراها .. أمة ثائرة ، وشعب مناضل بلا سلاح ، يرفع صوته عاليا مطالبا بالحرية والاستقلال ، ويقدم فى كل يوم شهداء وجرحى فداء لمصر العزيزة الغالية .

● فى لندن : أصيبت الحكومة البريطانية والصحافة والرأى العام بالدهشة البالغة من ثورة شعب مصر المفاجئة الشاملةالصامدة ، التى خرج بها متحدياً ، لا يهاب بريطانيا ، التى زادها انتصارها فى الحرب العظمى كبرياء وزهوًا. فى البداية كانت الحكومة البريطانية تدَّعى أنها مجرد قلاقل بسيطة عابرة .. فلما اشتدت الثورة المصرية عزماً وقوة ، واتسع مداها ، وحارت فى تفسير دوافعها ومرماها ، استَبدلت مندوبها السامى فى مصر والسودان وينْجت بالجنرال اللّنبى[٩]،وأعلنت ذلك فى بيان يحمل فى ثناياه الاتجاه إلى قمع الثورة بقوة السلاح. وبمجرد وصوله إلى القاهرة ، أصدر

(٩) كان هذا الرجل قائدًا عامًّا للجيوش البريطانية فى مصر أثناء الحرب العظمى وقاد الحملة إلى فلسطين وسوريا ، فهومُشعِل حرب ، لابطل سلام .

إنذاراً بتوقيع « أقسى العقوبات على المعتدين على طرق المواصلات والأملاك العمومية ، وعلى الأنفس ، أو الخروج على القوانين » ، ونصح المصريين «بالتعقل والروية والتزام طريق الحكمة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والله الهادى إلى سواء السبيل». هكذا جاء ختام الإنذار ، وهو يذكرنا بإنذارات وبيانات نابوليون بونابرت التى كان يوجهها إلى المصريين ، ويضمنها آيات قرآنية وتعبيرات دينية إسلامية ! ، دَجَل وخداع ، وما يخدعون إلا أنفُسَهم ! .

● فى أوائل إبريل ١٩١٩ عادت المظاهرات السلمية تجوب القاهرة بدعوة من الموظفين ، وكانت أول مرة يُضرب فيها موظفو الحكومة جملة لأسباب سياسية أو غير سياسية . اشترك فيها آلاف من الجماهير ، وأقفلت المحال التجارية . ووقع صدام مع الدوريات البريطانية التى أطلقت النار على المتظاهرين ، فسقط تسعة شهداء ، وأكثر من خمسين جريحاً .

● طلبت سلطة الاحتلال غلْق الجامع الأزهر ، ولكن شيخه (محمد أبو الفضل الجيزاوى) رفض . واتخذ منظمو المظاهرات مسجد ابن طولون ـ مع الأزهر ـ مكاناً لعقد الاجتماعات .

الشيخ أبو الفضل الجيزاوى

● صدرت الأوامر للجنود البريطانيين بإطلاق الرصاص على المتظاهرين؛ فزاد عدد الشهداء والمصابين ؛ ولم تتوقف المظاهرات .

● رأت الحكومة البريطانية أنه من الأفضل لها اتخاذ سياسة جديدة للتهدئة؛ فأعلنت الإفراج عن سعد زغلول وزملائه ، وإباحة السفر للمصريين جميعاً .

● خرجت مظاهرات ابتهاج بالإفراج عن سعد وأصحابه ، لكنها قوبلت بالاعتداء المسلح من جنود الاحتلال ، وسقط بسببها عدد من الشهداء والجرحى؛ فعادت المظاهرات الثورية أكبر عدداً ، وأشد سخطاً وحماساً ، وكلها تواجَه بالاعتداء الوحشى من جنود الاحتلال .

● إلى أن وقَعت مفاجأة مزعجة ، لم تكن فى التقدير والحسبان ، وكأنها رجْز من عمل الشيطان : فى ٧ مايو ١٩١٩ أُعلنت شروط معاهدة الصلح التى قررها الحلفاء فى مؤتمر فرساى ، وجاء فى نصوصها الخاصة بمصر : إقرار الحماية البريطانية التى فُرضت عليها فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ .

●● ولنا هنا وقفة ...

عجيب مريب أن يقر الحماية البريطانية على مصر مؤتمر عالمى ، استغرق تنظيمه وتشغيله وعقد جلساته نحو أربعة أشهر ، وسبقه وأحاطت به دعايات ضخمة ، وشعارات فخمة ، وإرهاصات مجلجلة ، وتَوَّجَه رئيس أمريكا ويلسون بمبادئه الشهيرة المثيرة : (سلام دائم ، وإنصاف ملائم ، وحرية الشعوب ، وإزالة الكروب ، وحقوق الأُمم فى المعالى قمم ، لا ضغوط ولا إكراه، ونؤازر الحق إلى منتهاه ...) . وفجأة ، إذا بالوعود وكأنها ـ للأسف ـ سراب ، وإذا بالمبادىء وكأنها نعيق غراب ،وكأنما الخُبث عند «الكبار » سمة غالبة ، أو أن « الغرب » فى ظلم « الشرق » مِلَّة واحدة (١٠).

وودور ويلسون

وليست هذه هى المرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة : فلسوف تشهد سنوات القرن العشرين الظلم الكبير يحيق بدول الشرق والإسلام ، والإجحاف الصارخ المثير يلحق بشعوب العربية والقرآن ، وموازين العدل تطيش ، والقوانين الدولية تطبَّق بمعيارين ـ حتى داخل المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة ومن قبلها عصبة الأمم ـ كلما عرض شأن أو طُرحت قضية تمس حقوق هذه الدول الشرقية أو الشعوب . ألم يقل هذا الرجل ـ الجنرال اللنْبى ـ عند دخوله القدس قائداً لجيوش الحلفاء فى الحرب العظمى ، بلا داع ولا مبرر ، إلا داع ماكر فى نفسه ، وفى نفوس حلفائه : « ها قد عُدنا يا صلاح الدين»؟!...يقصد صلاح الدين الأيوبى ، محرر القدس والشام من استعمار الصليبيين ؟!.

حاول بعض المؤرخين التماس العذر لويلسون ، بأنه كان واقعاً تحت تأثير لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا آنذاك ، وقال آخرون : إن المصالح المشتركة بين بريطانيا وأمريكا كانت غلابة . وقال غيرهم : إن رئيس وزراء بريطانيا الماكر استطاع أن يُقنع ويلسون بأن مبادئه أثارت الهياج والاضطرابات فى مصر ودول أخرى ذات أهمية كبرى بالنسبة لبريطانيا ، وأن اعترافه بالوضع الراهن كفيل بتهدئة النفوس والقضاء على الشغب ...

كل ذلك واهٍ ، لا يدفع تهمة ، ولا يزيل شُبهة . وقديماً قالوا ـ إن صحت تلك المبرارت ـ : (رُب عذر أقبح من ذنْب !) ... فرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ـ وكان يدَّعى يومها أنه يحمى القيم والفضائل ، ويصون الحقوق ـ ليس رجلاً ساذجاً ، ولا قاصر الإدراك عن تقدير المواقف حق

---

(١٠) كان فى نص مبادىء ويلسون : « إن الشعوب لا تُحكم أو تُساد إلا بمحض إرادتها ورغبتها » . وأيضا : «إن الشعوب لا يجوز أن تُنقل من سيادة دولة إلى أخرى » . .

قدرها ، معرفة العواقب ... ولا خافٍ عليه ما يجرى فى مصر من أيام محمد على ، وحتى اشتعال ثورة ١٩١٩ . وها قد رأينا قُنصله يمر بمظاهرة نسائية فى القاهرة ، فيغضب لسخْف جنود الاحتلال الإنجليزى وسوء معاملتهم ؛ فيطلب من القائد العسكرى البريطانى رفع الحصار عنهن . ثم إن مصر ليست بلداً تافهاً ، خاملاً ، نكرة ، مجهول الحضارة والتاريخ ، متوارى الموقع والمكانة ، أو أقل قدراً وقيمة إقليمية وعالمية من دول مستعمرات لا تكاد تَبين على الخرائط ، وقَلَّ أن سمع بها أحد ، نالت حقوقها كاملة وحريتها فى مؤتمر الصلح ، وبناء على مبادىء ويلسون . وشىء آخر :

الملك فـــــاروق

إن سياسات الدول الكبرى واستراتيجياتها بعيدة المدى ، لا تُعرف ولا تظهر فجأة،ولا تُعلن على الملأ قبل التمهيد لها ـ عمليًّا ، ودعائيًّا ، وديبلوماسيًّا ، وبكل الطرق ـ بفترات قد تمتد إلى سنوات وسنوات . ومن المرجح ـ إن لم يكن هو الأرجح ـ أن الولايات المتحدة الأمريكية أدركت جيداً خلال سنوات الحرب وفى فترة الشهور الطويلة التى عاشها ويلسون فى مناقشات ومناوشات ومشاكسات فى مؤتمر الصلح فى فرنسا ، أدركت أن صراعات أوروبا الوخيمة المعقدة لن تنتهى بسلام ، وأن عصر سيادة أوروبا على العالم على وشك الزوال ، وأن شمس بريطانيا « العظمى » تنحدر نحو الغروب ، وأنه قد حان وقت طلوع فجر السيادة الأمريكية ، وهى الأوْلى بميراث قوة ونفوذ وسيطرة أوروبا وبريطانيا بالذات . ألم يتحقق ذلك بعد نحو ربع قرن فقط من مؤتمر الصلح فى فرساى؟. وإذا عدنا اليوم بالذاكرة قليلاً إلى عام ١٩٥٢ ، وساعة خروج الملك فاروق من مصر بعد تنازله عن العرش : من كان فى وداعه من الأجانب الرسميين على ظهر الباخرة التى كانت بميناء الإسكندرية ، تحمله وأسرته ؟.. السفير الأمريكى، فقط !.

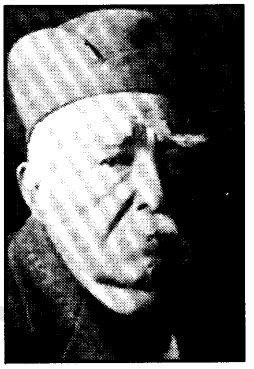

جـــورج كليمنصو

● فوجىء الشعب المصرى وفُجع ، وغضب وسخط ، عندما بلغه اعتراف معاهدة الصلح والرئيس ويلسون بالحماية البريطانية . وهو الشعب البطل ، الذى لم يبخل بالنفس ، ولا بالجهد ، ولا بالمال ـ طواعية ـ من أجل استرداد حقوقه وحريته . لقد جمع أبناء مصر ـ فى اكتتاب شعبى من أجل تغطية نفقات الوفد المصرى إلى فرنسا وإنجلترا ـ ما يزيد على مائتى ألف جنيه (وهو مبلغ ضخم فى ذلك الوقت) (١١).

---

(١١) كان الوفد المصرى الذى سافر إلى باريس يوم ١١ إبريل ١٩١٩ مكونًا من : سعد زغلول / على شعراوى / حمد الباسل / محمد محمود / عبد الخالق مدكور/ حسين واصف (وكلهم باشاوات) ، والبكوات : عبد العزيز فهمى / أحمد لطفى السيد / محمد على علوبة / عبد اللطيف المكباتى / سينوت حنا / جورج خياط / مصطفى النحاس / حافظ عفيفى/ محمود أبو النصر/ ويصا واصف .

● أصدر الوفد المصرى من باريس بياناً ، أبدى فيه احتجاجه على ما ورد فى معاهدة الصلح ، متعلقاً بإقرار الحماية البريطانية على مصر . وأرسل مذكرة تفصيلية تشرح وجهة نظره القانونية والتاريخية ومطالب شعب مصر العادلة الواضحة ، أرسلها إلى رئيس وزراء فرنسا جورج كليمنصو ، بعد أن خاب الرجاء فى استجابة من بريطانيا أو الولايات المتحدة التى جعلت مبادىء رئيسها أساساً للهدنة وللمؤتمر . وزاد الغضب والسخط فى مصر؛ وعادت المظاهرات .

● ثم يفاجأ الناس ـ والعالم ـ بأن مجلس الشيوخ الأمريكى يصدر فى أغسطس ١٩١٩ قرارا بعدم التصديق على معاهدة الصلح ويوافق على ما عرضته عليه لجنة الشئون الخارجية بالمجلس من أن « مصر من الوجهة السياسية ليست تابعة لتركيا ولا لبريطانيا ، ويجب أن تكون صاحبة الأمر فى تقرير مصيرها » .

● اغتبط الشعب ـ فى مصر ـ بهذا النبأ ، وهو يرى فيه بصيصاً من نور يكشف للعالم وجه الحق ، وصدق العدل فى قضيته ؛ فخرجت المظاهرات الحاشدة ، وقابلها جيش المحتل الشرس بالعنف والاضطهاد ، والقتل والاعتقال . وفرض غرامة على الشعب فى المناطق التى وقعت بها تلفيات ، بلغ مجموعها ٢٢٤٣٥٥ جنيها . وتستقيل الوزارة ، وتتبعها غيرها ، ثم تستقيل ... وهكذا . وفى سبتمبر ١٩١٩ يلقى طالب بالمعهد الدينى بالإسكندرية قنبلة على سيارة رئيس الوزراء محمد سعيد باشا ـ وكان من الخاضعين للقصر وللإنجليز ، معادياً للثورة ، مضطهداً للثائرين المسالمين ـ لكن القنبلة لم تصبه؛ وحكم على الشاب بالأشغال الشاقة عشر سنوات .

● حدث خلاف بين أعضاء الوفد المصرى ، أدى إلى انفصال إسماعيل صدقى ، ومحمود أبو النصر ، وحسين واصف عنه ، وانضم إليه على ماهر .

● فى أكتوبر ١٩١٩ ، قرر السلطان فؤاد « منح تعويضات ضحايا الفتن والقلاقل السياسية التى وقعت فى القطر المصرى منذ ١٠ مارس ١٩١٩ » . ونلاحظ أن « عظمة السلطان المبجل ! » يصف مطالب شعبه الوطنية العادلة بأنها « فتن وقلاقل سياسية»، علما بأن هذه التعويضات التى قررها مرسوم عظمته مقصود بها أن تُدفع ـ من أموال الشعب ، لا من أمواله هو الخاصة التى هى أيضا من ثروة الشعب ـ إلى الأجانب المقيمين فى مصر . وخصص لها المرسوم مبلغ « مليون جنيه » ـ وهو مبلغ ضخم بالنسبة

بعض زعماء
الثورة المصرية

للميزانية ـ وكلف لجنة مكونة من سبعة أشخاص للنظر فى هذه التعويضات أربعة منهم من الأجانب ! ، وكأن « ولىّ النِّعم » يعاقب الشعب العظيم المجاهد البطل ! .

● فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩ ، كانت وفاة المجاهد الوطنى محمد فريد ـ خليفة مصطفى كامل ـ وهو فى منفاه فى أوروبا ، بعد مرض قاس طويل ، وعمل دائب مستمر مشرف من أجل مصر وقضيتها ومطالبها فى الحرية والاستقلال لكل وادى النيل (أى مصر والسودان معاً) .

● اشتد غيظ المحتل البريطانى من سخط وصمود شعب مصر العظيم ، وإصراره على موقفه ؛ فعقدت محاكمات عسكرية بريطانية استنادا إلى الأحكام العرفية فى كل مناطق مصر لمحاكمة الثوار الأبطال ـ وكل ذنبهم المطالبة بالحق المغتصب ، ورفع الظلم والعنت والاستعمار عن الناس ـ وصدرت الأحكام بالإعدام وبالأشغال الشاقة ، وبالسجن ، وبالجلْد .. بالعشرات ، والمئات .

● أرادت الحكومة البريطانية أن « تمتص » غضب وسخط المصريين ، فأعلنت ـ مع إصرارها على الحماية ـ إيفاد لجنة برئاسة وزير المستعمرات ألفريد ملنر ، مهمتها : «تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيراً فى مصر وتقديم تقرير عن الحالة فى تلك البلاد وعن الشكل القانونى النظامى الذى يُعد تحت الحماية البريطانية لترقية أسباب السلام واليُسر والرخاء فيها ، وتوسيع نطاق الحكم الذاتى لها .. وحماية المصالح الأجنبية » ، فكانت

obeikandl.com

هذه بداية سلسلة من إيفاد اللجان وإعداد التقارير ، وعقد جلسات فى القاهرة وفى لندن ، امتدت لشهور وسنوات ، انتقلت فيها مطالب الشعب العظيم ـ الذى لم تهدأ ثورته وغضبته لفترة طويلة ـ انتقلت أمانة فى أيدى الزعماء الذين اختارهم وصنعهم ، وإن غيَّرت الظروف والأيام بعض ما صاغ فيهم وأراد منهم ، ولقد اشتجروا فيما بينهم واختلفوا ، بدافع من تباين الرأى ، أو بباعث من رغائب الهوى ، أو باستمالة من العدو الماكر المحتل .

● وعلى الرغم من تأكيد بريطانيا باستمرار ، وفى كل المفاوضات والمناسبات، بأن الحماية لن تُرفع ، وأن جيشها من مصر لن يرحل[١٢] ، ورغم موقف القصر السلطانى (الذى أصبح القصر الملكى بعد الاستقلال) المتعاطف مع الإنجليز ، والخاضع لنفوذهم ، والكارِه لثورة الشعب ، ورغم تعيين وزراء ورؤساء وزارات من أمثال وزارة محمد سعيد ، ويوسف وهبة ، ومحمد نسيم .. الذين كانوا عوناً للقصر وللإنجليز على الشعب الثائر الصامد الشجاع ، رغم ذلك كله وغيره ، ظل الكفاح الوطنى ثابتاً قوياً، وصوت الجماهير عالياً مدوياً، مختلطاً بطلقات المدافع والبنادق ، وضربات العِصىّ والسياط ، وأزيز المشانق ، وآهات الجرحى والمعذَّبين .

● ومن الواجب علينا أن نذكر هنا موقفين كريمين يؤكدان ظاهرة جلية فى تاريخ مصر الخالدة وثورتها سنة ١٩١٩ المجيدة : وحدة الأمة ـ باستثناء بعض الشراذم والمنتفعين من الاستعمار وهم قلة ـ وتأثير « روح » الشعب الثائر على كل الطوائف والفئات والمستويات :

عندما تألفت وزارة يوسف وهبة فى نوفمبر ١٩١٩ على أثر صدور بلاغ دار الحماية البريطانية بقدوم لجنة ملْنر التى ستقترح النظام السياسى لمصر تحت الحماية البريطانية ، زاد الغضب والسخط فى أرجاء مصر ، ونقم الشعب على يوسف وهبة باشا رضاءه بتأليف وزارة فى ظل هذا الإعلان الذى يؤكد تثبيت الحماية البريطانية ، أى الاحتلال . ومع أن رئيس الوزراء هذا كان قبطيا ، إلا أن الكنيسة المرقصية الكبرى بالقاهرة عقدت اجتماعاً كبيراً فى اليوم نفسه برئاسة القمص باسيليوس ، وكيل البطريركية ، خطب فيه عدد من الشخصيات المرموقة ، أعلنوا فيه سخطهم على وهبة باشا ،

---

(١٢) فى فبراير ١٩٢١ أعلن ونستون تشرشل وزير المستعمرات أن مصر هى جزء من الإمبراطورية البريطانية المرنة، وتوقع أن الصعاب القائمة بين بريطانيا وأيرلندا ومصر سوف تتناقص خلال سنوات قليلة (وخاب ظنه ، إذ مازالت مشكلة أيرلندا ومطالبها فى الاستقلال عن بريطانيا قائمة حتى الآن ١٩٩٨) .

وأرسلوا إليه برقية سجلها التاريخ المشرف للوحدة الوطنية ، جاء فيها :

« الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيسة الكبرى تحتج بشدة على إشاعة قبولكم الوزارة ، إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام ومقاطعة اللجنة .. فنستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن » .

ـ الموقف الثانى المبجل ، جاء من جانب بعض أمراء أسرة محمد على ، وفى مقدمتهم ـ كعادته ـ الأمير عمر طوسون . فى ٣ يناير ١٩٢٠ أذاع الأمراء عمر طوسون ، وكمال الدين حسين ، ومحمد على إبراهيم ، ويوسف كمال ، واسماعيل داود ، ومنصور داود ، بيانا على شكل رسالة موجهة إلى شعب مصر، أعلنوا فيها تضامنهم مع أبناء الأمة فى المطالبة بالاستقلال التام بلا قيد ولا شرط (ولو أنها جاءت متأخرة بعض الشىء) :

« أبناء مصر مواطنينا الأعزاء :

.. إن الأمة الشريفة التى هى سبب عظمتنا وشوكتنا (شدة قوَّتنا) وفخارنا قد قامت بالواجب عليها قياما يجعل لها ولنا أعظم منزلة نتفاخر بها فى العالم بأسره . وبما أنه لم تَبْق من جميع طبقات أمتنا العزيزة طبقة إلا نادت بأعظم صراحة ، وأجْلى بيان ، مطالبة بحقوقها الشرعية المقدسة والحقة ، فقد جئنا نحن أولاد محمد على ،لا لنشارك أمتنا فى أمانيها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا إلى صدور أفرادها ، ونجعل أيدينا فى أيديهم ، حيث إننا لسنا إلا روحاً واحدة ، حتى نكون جسماً لا يُبْتر ، وقوة لا تُقهر ، فنطالب بحقوق وطننا ، نطالب بحقوق أمتنا ، نطالب بحقوقها الشرعية ، نطالب باستقلال مصر استقلالاً تامًّا مطلقاً ، بلا قيد ولا شرط » .

وفى اليوم ذاته ، أرسلوا برقية بهذا المعنى إلى اللورد ملنر .

● فى فبراير ١٩٢١ ، اضطرت الحكومة البريطانية ـ راغمة ـ إلى الاعتراف بأن «الحماية البريطانية علاقة غير مُرْضية » .

● فى ٢٨ فبراير ١٩٢٨ ، أعلنت بريطانيا إلغاء الحماية على مصر ، كما اعترفت صراحة وعلانية بمصر دولة مستقلة ذات سيادة (وإن ظل جلاء الجنود الإنجليز عن مصر مطلباً مؤرقاً ملحًّا ، حتى تم عام ١٩٥٤) .

نجحت الثورة . وفاز الشعب البطل . وانكسرت الإمبراطورية البريطانية ،

وذل كبرياؤها بالحرب العالمية الثانية . وانتزعت منها أمريكا سيادة العالم الغربى، وفى مواجهة الاتحاد السوفييتى . ولم تعد الحياة فى مصر بعد ثورة شعبها عام ١٩١٩ مثلما كانت قبل الثورة : سياسيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا وعسكريًّا . وهكذا كان حصاد تلك الثورة ، وفيه دليل على نفاذ قانون إلٰهى حكيم ضابط للحياة : « فأما الزَّبَد فيذهب جُفاء وأما ما ينفع الناس فيمكثُ فى الأرض » ـ الرعد ١٧ .

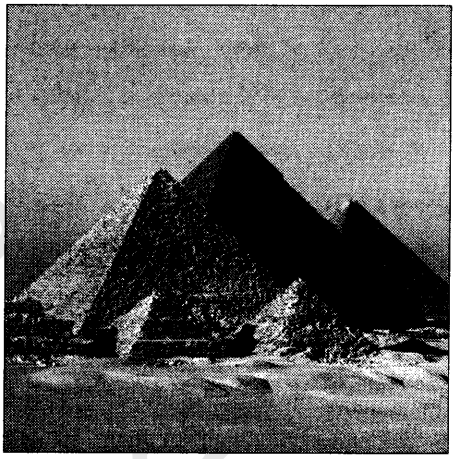

هذه الموسوعة ..

بفضل من الله وتوفيقه ، عرضت فكرتها على الناشر المهذب الكريم الأستاذ محمد رشاد ؛ فتفضل ـ مشكوراً ـ بالموافقة عليها ، ومؤازرة تنفيذها بقوة وحماس . وبعد مرحلة الإعداد والتخطيط لها ، بمشاركة أستاذين من الكتاب الفضلاء «مختار السويفى » و«سامح كريم » ـ ومجموعة من الأساتذة العلماء الأجلاء ، سوف ترد أسماؤهم فى الأعداد التالية بإذن الله ، كل فى تخصصه ـ انتهى الرأى إلى صدور أعداد السلسلة فى أجزاء على النحو التالى :

- مطلع الفجر : الأحداث الممهدة للقرن العشرين ، وسماته العامة .
- السياسة والديبلوماسية فى القرن العشرين (جـ ١ ، جـ ٢) .
- رجال صاغوا القرن العشرين (جـ ١ ، جـ٢) .
- وقائع وطرائف من القرن العشرين .
- نساء شهيرات من القرن العشرين .
- أفكار ومذاهب من القرن العشرين .
- الإبداع الأدبى فى القرن العشرين .
- فنون القرن العشرين .
- العصر الذهبى للسينما فى القرن العشرين (جـ ١ ، جـ ٢) .
- الجريمة والعقاب ، والجاسوسية فى القرن العشرين .
- الفضاء والعوالم الأخرى فى القرن العشرين .
- ثورة الاتصال والإعلام فى القرن العشرين .
- مسيرة العلم والتكنولوجيا فى القرن العشرين .
- البيئة والكوارث الطبيعية الكبرى فى القرن العشرين .

obeikandl.com

- الاكتشافات الكبرى فى القرن العشرين .
- العالم العربى والإسلامى فى القرن العشرين .
- الأسرة ، والمجتمع ، والرياضة فى القرن العشرين .
- على عتبات القرن الحادى والعشرين .

وبالله التوفيق والتيسير ...

(المؤلف)

obeikandl.com